مصرياتي
مجلة
الابتسامة
www.ibtesama.com

دار الحقائق

يحيى يخلف

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

رواية

نوافير الرمل

يحيى يخلف

تفاح المجانين

رواية

www.liilas.com
**** عروض ****
ليلاس للإبتسامة

دار الحقائق

جميع الحقوق محفوظة

الطبعــة الاولــى كانــون الثاني ١٩٨٢

الطبعة الثانية ١٩٨٢

صمم الغــلاف : عماد حليم

الاهـــداء

الى الشهيد ماجد ابو شرار ...

ماجد الانسان والقائد والمثقف الثوري .

« يحيى »

ما اكبر صبرهم جيل الآباء ، وما أجل حزنهم ...

تجرعوا المرارة ، وعاشوا زمن الكبـــوة والنهوض ، وكانوا شهود زمن الانكسارات ..

زمن الوجع والخيانة ..

وظل تاريخ الملـــوك والامراء والسلاطين يكـــرر لهم نفسه ، مرة كمأساة ، واخرى كمهزلة ..

عاشوا ولم يسأموا العيش ..

وظلوا يحلمون بالتحرير والوحدة ..

وتغلبوا على اليأس بقوة الحياة .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

الجزء الأول :

النقطة الرابعة

ما العلاقة بين رجل الكيس والفورمن ؟

انني لاتساءل ..

ويتساءل العم (تحصيل دار) ، والولد بدر العنكبوت .

يتساءل الوالد . يتساءلَ الدكتور باز . تتساءل امي . تتساءل الست انجيل .

قالت الست انجيل : نقطة اول السطر .

قالت الست انجيل : حسنوا خطكم .

قالت : لا تتمخطوا في الصف .

قال (الفورمن) : احطم هذه العصا فوق رؤوسكم .

قال رجل الكيس : هذا موزع المنشورات .

قال العسكري للعم (تحصيل دار) : خذ المكنسة وكنس المخفر .

تناول العم (تحصيل دار) المكنسة وشرع في الكناسة . بعد قليل قالوا له توقف . عند ذلك سمع صراخا بشريا في الغرفة المجاورة .

ثم ادخلوه الى غرفة بها عدد من الرجال ، اوقفوه بينهم ..

وسطهم . ثم ادخلوا رجلا يلبس على رأسه كيسا من الخيش ثقّب عند العينين لكي يرى الناس ، ولا يراه احد .

بدأ رجل الكيس يستعرض الوجـــوه . انخلـع قلب العـم (تحصيل دار) من الجذور .. هـــل سيقع اختيار رجل الكيس عليـه ؟

ولما وقع اختيار رجل الكيس على سواه ، سألوه :

لماذا اتيت يا .. (محمد تحصيل دار) .

ـ اتيت لكي اسحب الشكوى ضد الفورمن .

ـ وهل شكوت على الفورمن ؟

وكانت الشوارع تنفل بالناس الذيـن يتظاهرون ويحرقـون مبنى النقطة الرابعـة واذ ذاك ، اكـل العم (تحصيل دار) نصيبه من كرابيج الشاويش حسن .

قال الراوي : لنترك الدكتور بـاز يعتـذر للعم تحصيل دار عما حدث . ولنعد الى بداية الحكاية ..

قالت الست انجيـل : لا تتمخطـــوا في الصف . قالـت : لا تسعلوا . قالت : خطكم مثل خرابيش الدجاج .

قالت : ممنوع السعال يـا اولاد . ممنوع الكحـه . ممنوع النبـاح .

قالت الست انجيل للمرة الثالثة .

قالت : اعصابي لا تتحمل هـذا السعـال المرهق . لا تتحمل روائحكم الكريهة .

ثم فقدت اعصابها ، فحملت المؤشر ، وضربت الاولاد الذيـن يجلسون في المقعد الاول .

اما الاولاد الذين يجلسون في المقاعد الخلفية فقد ركعوا فوق الحصى المفروش فوق ارضية الخيمة .

كانت الرياح تهز الشادر .

كان للحصى وخز المسامير .

كنت ارتجف . وكان بدر العنكبوت يبحث عـن فجوة يهرب منهـا .

بـدر العنكبوت

بدر العنكبوت صاحبي وابن صفي وحارتي .

المعلمون ظالمون ، وهو عصي الدمع .

كان طالبا في الصف ، ولكنه خارج الصف يستطيع ان يتهرب من شرب الحليب الناشف ، وحبـوب زيت السمك . وفي الحـارة يتزعم الاولاد ، ويقود المباريات في طابة الشرايط ، ويقص الحكايا ، ويقوم بالالاعيب ، وينصب الفخـاخ ، ويسرق البطيـخ . يطـي التعريفة بالدهان ، ويحولها الى شلن ابيض .

ويعام الاولاد الشعبطة ، والنطنطة . مطاردة الكلاب ، سرقة الاعشاش ، اثارة الدبابير ، مسك الجنادب ، قتل الوطاويط ، لعب البنانير ، اكل الفلافل ، والسطو عـــلى عرانيس الذرة ، واقراص عين الشـمس .

اضافة الى ذلك . كان يتقن القفز مـــن عـــل ، والشقلبـــة ، والمشي على اليدين .

كان يطوي نفسه حتى يصبح بحجم قبضة اليـــد . كان نحيفا وخفيفا يشبك يديه برجليه ، ويلتف حول نفسه كالعنكبوت .

يتراهن مع اولاد الحارة ، فلا يستطيع احد تقليده ، فيكسب الرهـــان .

الـوالـد

كنا نسكن في حوش واســع . حـــوش يفص بالمستأجريـــن . تجلس في الركن الحاجة ام امين ، المالكة العجوز التي يغطي وجهها وشم كبير .

حوش واسع . الاطفال ينطنطون . وامـــرأة ترضع طفلا مـــن ثديها الضامر . واخرى تغسل الغسيل ببقايا صابونة تكاد تتلاشى . رجال يعبرون عابسين . يجرجرون اقدامهم . رجـــال عاطلون . عمال باطون . عتالون . حارس ليلي ، وقهوجي واحـــد . حوش يمتلىء بحبال الغسيل والملاقط ، والملابس المشبوهـــة ، والذبـــول

والانكسار ، وكثير من الوجع . الحاجة ام امين تجلس في الزاوية ، تتعامل مع المستأجرين بالحسنى .. بالتهديد .. بالملاحقة .. بالتودد .. بالقسوة . تقبض الاجرة ولا تتوقف عن الشكوى . تقبض وتحكي عن الغلاء . تمهل الساكن شهرا . تمهله شهرا آخر . وعندما ينتابها وجع المعدة ، تذبل ويصفر وجهها ، ويصبح لها ملامح السكان العاطلين .

تقبل نحوها النسوة ، وتلفى المسافة بين المالك والمستأجر ، ويوحد الوجع تلك الجفون المنكسرة .

وفي اليوم التالي تعود المشاحنات .

ينط الاطفال ، وعند البوابة الكبيرة تصطف تنكات الزبالة . تغطيها قشور البطيخ ويحوم حولها الذباب .

كنا ـ انا وبدر العنكبوت ـ ننتمي الى ذلك الحوش الذي يغص بالمستأجرين بعد اعوام من الخروج . او كما يقول والدي بعد اعوام من الهجرة .

كان والدا ذا كبرياء .. رفض ان يشمله الاحصاء ، ورفض ان يتسلم بطاقة الاعاشة ، وها هو بعد اعوام من الخروج ، يتقدم بطلب الى الوكالة لكي يشمله الاحصاء ويحصل على البطاقة .

كان والدا قاسيا ، وفي الوقت نفسه كان حنونا وعاطفيا اذا غضب منا ، فانه يسحب الحزام الجلدي العريض ، واذا مرض احدنا يحمله على ظهره الى عيادة الوكالة ، وعندما لا ينفع الشراب

المر في الشفاء ، وترتفع درجة الحرارة ، وتتحول الحمى الى هذيان ، فانه يذرف الدمع الصامت .

كان والدا عابسا ، فاذا جمعت شفتي واطلقت صفيرا في لحظة صفاء ينتهرني ، ويقول ان الصفير يجمع الشياطين كما انه كان ينتهرني اذا اطلت النظر في المرآة ، ويقول ان على المرء الا يعجب كثيرا بنفسه ، لانه اذا اعجب بنفسه اصبح متغطرسا .

وكان والدا حلو الحديث يروي اجمل القصص والحكايا . يصطحبني معه الى الغرفة الملاصقة لغرفتنا والتي يسكن بها العم (تحصيل دار) والد بدر العنكبوت ، وتبدأ السهرة بشكوى الرجل المسن على ولده العفريت ، ويقوم الولد العفريت فيصنع لهما الشاي .

وتحصيل دار هو الاسم الذي التصق بالعائلة التي تخصصت في جباية الضرائب على البيوت والمواشي واسواق الجمعة منذ عهد الاتراك .

يروي العم (تحصيل دار) للوالد وهو يلف سيكارة الهيشي باوراق (الاوتومان) ، عن الحصان الذي كان يركبه ايام العز ، وهو يلبس بنطلون الفرسان من نوع (بريشز) ويضع البندقية امامه فوق السرج ، ويطلق لحصانه العنان . يجوب القرى ، ويحصي المواشي ، ويجمع الضرائب ، ينذر المماطلين ، ويحبس المخادعين .

ثم يأخذ الوالد منه الحديث ، فيحكي عن فرسه الشقراء ،

ايام البلاد واوصافها ومزاياها ، وذيوع صيتها في سمخ والعبيدية والحمة وطبرية والنقب ووادي بيسان . وعن محاولات جرت لسرقتها بعد ان رفض بيعها ، ويسرد قصة تستغرق بقية السهرة.

وعندما تنتهي حكايا الايام الماضية في سهرة ، يعودان الى الحاضر في سهرة اخرى . يعودان الى اللحظة المرة . ويشكوان فقر الحال الى بعضهما البعض ، يلعنان التعب وخيانة الحكام .

العم (تحصيل دار) اشتغل بعد الهجرة مع احد الصيارفة في المدينة . كان يجوب المدينة والمخيم ويشتري من الناس العملة الفلسطينية التي بطل التعامل بها .

كان يتعين على العم تحصيل دار ان يمشي في ازقة المخيمات وينادي بصوته الضعيف (يللي عنده عملة فلسطينية) يقول العم انها من اشق الاعمال التي اشتغل بها في حياته .. يقول لك ما اصعب ان يبيع الفلسطيني بقايا النقود التي بحوزته . كانوا يفضلون ان يحتفظوا بها كذكرى .. يضعون القروش في علاقة المفاتيح ، ويصنعون من الملاليم قلائد يعلقونها في مرآة سيارات الاجرة..

لذلك اقلع العم عن هذا العمل الذي وجد انه من غير اللائق الاستمرار به . وامتهن بيع القهوة الحلوة . يتجول في السوق يصب القهوة لعمال المياومة ، وباعة الخردة ، وبائع الشواء ، والعتالين وينادي وهو يطقطق بالفناجين : دمعة بالهيل .. دمعة .

اما والدي فقد كان عاطلا . يتلقى المال بين الحين والآخر من

اقاربه في سورية . يشكو ويزداد شكوى .

كان وجيها ، ففي البداية رفض ان يشمله الاحصاء ، رفض ان يتسلم المؤن والاعاشة من وكالة الغوث ، ثم بعد ان صرف الجنيهات التي كان يحملها صار عزيز قوم ذل . صار واقعيا واعترف بالفقر وسوء الحال ، وبدأ يقدم عروض الحال والاستدعايات للمبتر بول ، وينتظر لحظة بلحظة مجيء لجنة الاحصاء ، لكي تتأكد اننا من اللاجئين ، واننا نستحق الاعانة .

وعندما تنتهي كل الاحاديث ويصمتان ، يكون السراج قد ذبل ، وتألقت على قسمات والدينا كبرياء ايام خلت .

الفورمن

احيانا كان يأتي الفورمان الذي يشتغل في (النقطة الرابعة) ويقتحم خلوتهما يدخل فيخلع قبعته التي تشبه قبعات الصيادين .

يدخل دون ان يخلع حذاءه . يدوس البساط بحذائه العالق بالطين ، ويطلب الشاي بعنجهية .

واذ ذاك تفقد الاحاديث حرارتها ، وتصبح الكلمات التي يحكيها الوالد او العم (تحصيل حاصل) عادية ، وخالية من الدفء ، او من تلك المشاعر الانيسة .

يشرب الشاي ويمشي ، وبعد ان يغيب يذمه الوالد ويشتمه ،

ويقول انه مرتبط، اشتغل ايام البلاد مع الانجليز في (قوة الحدود)، ويشتغل الآن مع الاميركان في النقطة الرابعة . .

كان الفورمان يملك امراة جميلة ، بيضاء ذات شعر اصفر ، كنا نتسابق ـ انا وبدر العنكبوت ـ لكي نشتري لها الحاجيات والخضار . وكانت تعطينا البخشيش والحلوى . احيانا كانت تزور امي . وزارتها امي مرة واحدة . ذهبت مع والدتي وسهرنا عندها . فاحضرت لنا (زوجة الفورمن) صور عرسها .

ثم نشرت امامنا شراشفها ، اغطية الوسائد، الملابس المطرزة، المكشكشة ، بالتفتا ، والاطلس ، المحلاة بالتنتنة ، والموشاة ، والمقصبة .

ثم فتحت صندوق اساورها : المباريم ، والليرات الفصملي ، والمجاديل وقلائد الفضة .

ثم عرضت امامنا نياشين زوجها التي حصل عليها ايام (قوة الحدود) . كانت زوجة الفورمن تعرض علينا مقتنياتها ، بينما خصلات شعرها الاصفر المجدول التي تشبه سنابل القمح ملقاة على كتفيها .

الزير

انقطعت المياه عن الحارة ذات يوم . اعطتنا زوجة (الفورمن) زير الماء لكي ننظفه ونملأه من الحارة المجاورة .

كان يوما مرا .. مريرا .

قال لها بدر العنكبوت : انا رئيس الحارة ، وانا احمل الزير. تناوبنا على حمل الزير الفخاري ، ثم دحرجناه في المرتفع وعندما وصلنا الحارة المجاورة ، ووقفنا امام حنفية الماء الغليظة . شمر بدر العنكبوت عن ذراعيه ، وشمرت عن ذراعي ، وغسلناه . ثم انتظرنا لكي يجف . واثناء ذلك صار بدر العنكبوت يمازح اولاد الحارة المجاورة . ثم اخذ يلعب معهم لعبة (السبع حجار) ، وبعدها لعبة (ابو الربعة) ومن ثم لعبة (الطماية) .

وذكرته بعد ان شارفت الشمس على الغروب ، ذكرته بزير الماء ، فقفز في الهواء ثم صاح بفرح : الزير .

سألهم : هل نلعب لعبة الزير.. من يستطيع ان يدخل جسمه في هذا الزير ؟

ضحك الأولاد ، ولم يهتموا ، كان زيرا صغيرا ذا فم ضيق ، وكأنما السؤال للمزاح اذ كيف يستطيع احدهم الدخل في الزير ذي الفوهة الضيقة .

قال : هل تراهنون .. انا ادخل الزير .

ثم اخذ يطوي نفسه ويلف ذراعيه بقدميه ، ويتمرغ بالتراب ويضحك : انا بدر العنكبوت .. امي السمكة وابي الحوت . فصفق له الاولاد كثيرا . وفي جو مثير بدأ يتهيأ للدخول في زير الماء.

ادخل في البدايا ساقه اليمنى ، ثم ساقه اليسرى ثم خلع قميصه ، ورفع يديه الى اعلى ، وانزلق ببطنه ، ثم استطاع عند

الابطين ان يسحل الى اسفل من الجهة اليمنى .. وجاهد لكي يتمكن من ادخال كتفه الايسر . وغاص راسه حتى منتصف فوهة الزير . وكان الاولاد يحدقون مذهولين .

وهتف فجأة : انا بدر العنكبوت .. امي السمكة وابي الحوت ..

فصفق له الاولاد . وهتفوا له : يعيش بدر العنكبوت .. يعيش .. يعيش .. يعيش .

واذ ذاك ظهر (الفورمن) قادما وبيده عصا غليظة . ولعل بدر العنكبوت رآه فقد جحظت عيناه ، وبدا يحاول الخروج . هرب بعض الاولاد . وامتقع وجه بدر العنكبوت . حاول ان يخرج فلم يفلح . ارتبك واطل الفزع من جلده الازرق .

كنت اتهيأ للهرب ، وانتظر بدر العنكبوت ليقفز من الزير ونهرب معا ، لكنه لم يستطع .

ظل الفورمان يقترب بعصاه الغليظة ، فهرب بقية الاولاد . اقترب (الفورمن) واقترب وكان يكبر ويزداد ضخامة في كل خطوة .

وعندما وصل .. تراجعت الى الخلف . صدره يرتفع وينخفض . يلهث كأنه يشخر . كان مرعبا ومخيفا . قال بغلظة مخاطبا بدر العنكبوت :

ـ ماذا تفعل يا ابن الكلب ؟

كان بـدر العنكبوت مكبـلا . . مهانـا . كـان ضعيفا مثـل عصفور تطبق عليه الفخ .

ـ اخرج والا حطمت راسك .

قالها (الفورمن) وهو يعني ما يقول ، وعند ذلك اية قوة دبت في الجسد النحيل المحشور داخل الفخار .

لعله فجر نفسه الى شظايا وحاول ان يطير .

تمكن من ان يحرر نفسه ، لكن الفخار كشط الجلد الازرق ، فتدفق الدم من الكتف ومن الخاصرة .

هل فوجيء (الفورمان) . . هل ارتبك لمنظر الدم ؟

وانطلق بدر العنكبوت يعدو ، وانطلقت خلفه ، دون ان ينظر اي منا الى الخلف .

الدكتور بـاز

في تلك الليلة بكى بدر العنكبوت مـن الوجع كما لـم يبك في حياته . دمعت عينا العم (تحصيل دار) واسرع والـدي ليحضـر الدكتور باز .

كانت الغرفة طافحة بالناس ، وكانت والدتـي تمسح الجرح الطري بالقطن وتطهره بالكولونيا .

وعندما كانت الكحول تلسع الجرح الطري، كان بدر العنكبوت يصرخ ، واشعر بالصراخ يخرج من جمجمتي والالم العظيم يطل من دموع امي . من ذهول الاخرين ، من طيات وجـه الختيار تحصيل دار ، ومن شقوق قدميه .

وصل والدي يصطحب الدكتور باز ، والدكتور باز يصطحب حقيبته .

حدق الدكتور باز بالناس وكأنه يزجرهم . لماذا تسدون الباب وتتكدسون على بعضكم البعض في هـذه الغرفـة الصغيرة . انكم تكتمون انفاس هذا الصبي الجريح الـذي يئن ويصرخ . هل كـان الدكتور باز يعلم انهم يعبرون بهذه الطريقة عن توحدهم ؟ احضروا له كرسيا لم يجلس عليـه ، وانمـا اجلس حقيبته . تراجع بعض الحاضرين الى الخلف . وخلع الدكتور بـاز جاكته ، واخذ يشمر عن ذراعيه .

وجهه احمر ، ويغطي رأسه كلبك رمادي بلـون شعر رأسه . يتكلم العربية بصعوبة ، ولكنه ليس خواجـا ، اذ يعالـج الفقـراء بدون مقابل .

شركسي او كردي ، ولكنه ليس غريبا عن حارتنا .

في حارتنا ينتشر مرض واحد هو الملاريا ، ولذلك فان الدكتور باز اعتاد ان يصرف للناس حبوب الكينا ، حتى قبل ان يسألهم مم يشكون .

ولكنه بعد ان شمر عن ذراعيه سأل :

ـ مم يشكو هذا الصبي ؟

قال والدي : هناك جروح في كتفه وفي خاصرته .

هز الدكتور باز رأسه ، كأنما يعلن عن استيعابه للمسألة .

فتح حقيبته ، وبدأ يخرج الاضمدة وعلب الدواء والمطهرات. تناول المقص وبدأ يعالج اللحم الزائد المكشوط . صرخ بدر العنكبوت من اعماقه .

توقف الدكتور باز قليلا وبعد ان هدأ الصبي قال يخاطب نفسه : ولكن جروحه بليغة ثم عاد يسأل : من فعل به ذلك ؟

اجاب صوت من الخلف : الفورمن ضربه بعصاه .

اجاب آخر : الفورمن ضربه بسكين .

اجاب ثالث : الفورمن ضربه بالفأس .

توقف الدكتور باز كليا عن العمل ، ثم وقف وقال :

ـ ما دام الامر كذلك فانه يتعين علي ان ابلغ الشرطة .

ولقد راقتني الفكرة . تخيلت الشرطة تجلب الفورمان مكبلا وتسوقه الى المخفر ، وتخيلت جنود الشاويش حسن وهم يركلونه ويصفعونه باكفهم الغليظة .

قال احد الجيران : اجل يجب ابلاغ الشرطة .

اخذوا يتهامسون : اجل لعل الفكرة راقتهم جميعا .

وعند ذلك تحولت الانظار الى العم (تحصيل دار) . حتى والدي ترك الامر كما يبدو له .

حك العم تحصيل دار لحيته ، او بالاصح عثنونه ، وقال بصوت منخفض : يا جماعة وحدوا الله .. لا تكبروا الموضوع .. المهم ان يشفى الصبي . اما الفورمن فحسابه عند ربه .

لكن احدا لم يقتنع ، ولم يشف غليله ان يترك حساب الفورمن ليوم الحساب ،و عادوا يتهامسون ويعربون عن رغبتهم في معاقبة الفورمن .

وحسم والدي الامر قائلا : الم تسمع يا دكتور .. والده لا يريد ابلاغ الشرطة .

وهكذا عاود الدكتور بساز معالجته للجروح ، وقص اللحم الزائد وعاود بدر العنكبوت صراخه ، في حين انكمشنا وانكمشنا ـ كبارا وصغارا ـ واختبأنا وراء الوجع الذي لا يطاق .

المخفر

في الصباح كان بدر العنكبوت قد اعتاد على السكينة الموجعة والالم الصامت . اكل كعكة بالسمسم ، وشرب كباية شاي .

وعندما عدت من المدرسة ، كان يستطيع ان يحكي وان يسمع ، وربما ان يبتسم .

حكيت له عن الست انجيل ودروس الاملاء ، ثم حكيت له عن الاستاذ (مفهوم يا اولاد) ، ثم عن عريف الصف راجح الذي اتفق معنا على ان نصيح بصوت عال :

ـ يسقط الاستعمار .

وعند الظهيرة جاء الدكتور باز يصطحب حقيبته ، جاء دون ان يطلب اليه احد ذلك . جلس على الكرسي الوحيد في الغرفة ، واخذ يلاطف بدر العنكبوت ، ثم قاس درجة حرارته واعطاه حقنة بالعضل .

وبعد ان شرب الشاي ، قال مخاطبا العم (تحصيل دار) :

ـ انا ابلغت الشرطة ، ويبقى ان تذهب وتسجل المحضر رسميا .

بدا الخوف على وجه العم تحصيل دار ، كأنه الجاني وليس الشاكي .

الناس في حارتنا يعتبرون الشكوى لغير الله مذلة ، الشكوى لمخفر الحكومة مذلة ، الشاويش حسن والاومباشي عبد الله والعسكري بخيت ، انت مضروب بالخيزران سواء كنت ظالما او مظلوما ، والى ان يعرفوا لماذا انت قادم تكون قد راحت عليك .

المخفر موجود للضرب والاهانة والفلقة .

قال العم (تحصيل دار) : يا حكيم .. حبال الحكومة طويلة والولد تحسن .

اجابه الدكتور باز : الفورمن ابن حرام ويشتغل مع الاستعمار ويجب ان تشكوه لكيلا يتطاول مرة اخرى .

وحدث جدل بعد ذلك بين العم (تحصيل دار) والدكتور باز، وانتهى باقتناع العم بالذهاب الى المخفر وتقديم شكوى رسمية ضد الفورمن .

★★★

جاء والدي مبكرا في تلك الظهيرة ، دون ان يحضر معه من السوق كيسا من الخضار كما وعد الوالدة . جاء مضطربا وفزعا وقال للوالدة ان المدينة تغلي .. ان المظاهرات في الشوارع وان طلاب المدرسة الثانوية يحرقون الاطارات والخشب ويقطعون الشارع .

وسألت بدر العنكبوت : ولماذا يفعل الناس ذلك ؟

فأجابني : لكي يسقط الاستعمار .

فسألته : ومن هو الاستعمار .

ففكر قليلا : ولم يستطع ان يجيب .

وعند العصر انتشر خبر على لسان الحاجة ام امين مالكة الحوش ، ان الفورمن عاد الى بيته هاربا لان المتظاهرين هاجموا

مبنى النقطة الرابعة واحرقوه وضربوا العاملين به .

وفيما بعد شاع خبر منع التجول في المدينة ، ووصول رجال الامن الى الحارات بحثا عن الذين يوزعون المنشورات .

واجتمع الرجال في بيت العم تحصيل دار يشربون القهوة ويستمعون الى الاذاعة ووقف فجأة ، بالباب ، رجل الشرطة . وجد البوابة مفتوحة فدخل ، ووقف بالباب دون ان يستأذن . صمت الرجال . صمتوا . طافوا .. تغيرت الوانهم . توقعوا . قال الشرطي : اهذا بيت محمد تحصيل دار .

شاهدت وجه العم تحصيل دار . الحقيقة ان الخوف لعبط فوق وجهه كالسمكة خوف له زعانف ، مخالب ، اظافر ، حوافر ، واظلاف .

وقال الشرطي : شاويش المخفر يطلبك .. هل لديك شكوى ؟

كدت اسمع صوته بالنفي ، ولكنه لم يخرج من حنجرته . وعلى العكس ما توقعت ، فقد وقف . لبس معطفه القديم وانتعل حذاءه ، ومشى مع الشرطي ، دون ان يطرح السلام وخرج .

وعندما خرج ظل الرجال صامتين .

كان بدر العنكبوت غافيا ، فلم يوقظه احد .

قال والدي : ما كان عليه ان يذهب في هذه الظروف ـ قال رجل آخر .. ما كان علينا ان ندعه يذهب .

وقال ثالث : كنت سأقوم واذهب معه ولكنه استعجل .

وقال رابع : والحقيقة انه لم يرغب في ان يصطحبه احد منا .

لكن ، لم يكن اي منهم يعني ما يقول : لم يكن اي منهم يجرؤ على اللحاق به .

وهكذا صمت الرجال مرة اخرى . اغتموا . اهين كل منهم امام الآخر . صمتوا على اتفاق صامت . انهم يلوذون بالفرار داخل انفسهم .

ثم اخذوا ينسحبون واحدا بعد الآخر ، ولم يبق سوى الوالد والولد الفافي وانا .. كان الوالد مكدودا . الآن بعد كل هذه الاعوام الطويلة ، اتذكر تلك اللحظات الحادة ضاق الوالد ذرعا بالانتظار . وقف يمشي في الغرفة كأنه يمشي فوق حد سكين . لعله كان يفكر بالمغامرة لعله كان يفكر بالجسارة .

★ ★ ★

عاد العم تحصيل دار اخيرا .

دخل منكس الرأس ، يجرجر قدميه .

كان الناس نياما ، فأقبل عليه الوالد معانقا . لكن لم يبد ما يوحي بانه يبادل الوالد المشاعر نفسها ، كان من الواضح ان شيئا مقتولا في داخله . استلقى على الفرشة قرب ولده الذي بدا يستيقظ .

رفع والدي الضوء الخافت ، فظهر وجـه العم تحصيل دار مليئا بالكدمات .. ولعل بدر العنكبوت بدأ يفهم . لم يسأل والدي ماذا حدث ، وانما خرج ولم يعد الا والدكتور باز بصحبته .

الدكتور باز دخل مضطربا . اقبل عـــلى العم تحصيل دار وامسك يده ووضعها بين راحتيه كما لو كان يعتذر . كما لـو انـه يؤكد انه لم يتوقع ان تكون النتيجة هكذا . ثم انحنى الدكتور بـاز على يد العم كأنه يريـد تقبيلهـا . الا ان العم سحب يـده وقال : لا تهتم يا دكتور .. لا تهتم .

وفي اليوم التالي كان الدكتور بـاز يكشف علـى صدر العم . سحب ثيابه الى اعلى ووضع السماعة على صدره ولعـل العم تذكر ان قميصه الداخلي ممزق ومرقع ، فسحب ملابسه الى اسفل .

الحيـــاة

توقفت الحياة عدة ايام .

ثم عادت من جديد ..

شفي بدر العنكبوت ، وعـاد للنطنطـة ، والشعبطة ، ولعب البنانير ، وقيادة المباريات في طابة الشرايط . وعاد للشيخين ذلـك الجو الاليف الدافىء .. عـادا يتسامران ويتذكران ايـام زمان . وعلى الحائط كانت فرس والـدي التي ليس لهـــا شبيه في سمخ والعبيدية وطبرية وبيسان تمشي خببا ، او تعـدو مرخية شعرها

الاشقر ، وتسابق الرياح النشطة . وكـان حصان العم (تحصيل دار) يرمح بصلابة وقوة ، ويطوي الارض الصوانية .

وكان الوالد احيانا يتذكر سوء الحال ، ويلعن ديـك الوكالة التي لا ترسل مندوب الاحصاء .

اختفى الفورمن من حياتهما ، وحل محله الدكتور باز الذي كان يسعفهما بحبوب زيت السمك والفيتامين. وظل بدر العنكبوت يتعفرت ويتشيطن ، ويعذب الست انجيل . وفي الفسحة ، يمشي على يديه ، ويقفز في الهواء ، ويلعن ديـك النقطة الرابعة والفورمن والمستر بول .

الجزء الثاني :

تفاح المجانين

طـريـف

صار بدر العنكبوت يبحث عن سر القوة .

وكان يقول : اكره الضعف ولـو اني ضعيف . يجب ان نفكر كيف نصبح اقوياء . كيف يرفع بدر العنكبوت الاثقـال ، ويمارس لعبة الملاكمة ، وكيف يقوى عـلى قتـل الشاويش حسن بصفعـة واحـدة .

وكان بدر العنكبوت يقول ايضا : متـى تصبح لـي قوة ثلاثة احصنة واربعة ثيران في وقت واحد .

وذات يوم دخل حارتنا (طريف) ..

دخل حارتنا مستجيرا . جاء الى الحارة عبـر حارة مجاورة دخل ضعيفا مستضعفا ، مطرودا ومطاردا ، يتجمد القـذى حـول عينيه ، ويمشي بصعوبة ، وتبرز عظام حوضه ويضمر بطنه فكأنـه لم يأكل طعاما منذ شهر .

كان جحشا ضالا ، ليس له صاحب ، ولذلك فقد قفز عـلى اكتافه كل الاولاد الاشقياء في الحارات المجاورة ، واوسعوه ضربـا وتعذيبا ، فأثار الدماء على رقبته ، وبطنه ، ولعله اعتاد على ذلك ، فها هو لا يقاوم ، يشم الأرض العجفاء بحثا عن شيء يؤكل، ويضربه الاولاد بالعصي فلا يرفسهم ، وكلما ضربه احدهم سرت فوق الجلد

فشعريرة واعتكرت العينان البنيتان الواسعتان فكأنه يتألم على طريقته الخاصة .

كان جحشا رمادي اللون ، ما عاش طفولته ، ولا رضع من ثدي امه ، ولا ترعرع في البراري ولا قدم له احذ وجبة من الحشائش الخضراء .

صاح بدر العنكبوت بالاولاد ، فابتعدوا عنه .

اقترب ، وربت على الرقبة الناعمة ، وعند ذلك التمعت عينا الجحش ، وصارتا تشبهان عيني انسان ، وصار انسان عينه بلون البن .

قال بدر العنكبوت : انه جائع وموجوع .

بدر العنكبوت كان يكره الضعف بالرغم من انه ضعيف . ثم فكر قليلا ، وقال : منذ اليوم سيكون هذا الجحش صديقنا .. ونسميه طريف .

ووجد طريف الحماية اخيرا . وجد الملجأ والعناية . صار ينام وراء النافذة ، وسرعان ما التأمت جروحه ، ودبت فيه الحياة . اشتدت قوائمه ، وصار بوسعه ان يدق الارض بحوافره ويتحفز اذا ما مر بقربه كلب شرس او عجل منافس .

فقال بدر العنكبوت : هذا جيد ... اصبح طريف قويا ويستطيع الدفاع عن نفسه . اما اولاد الحارة ، فلم يعد اي منهم يجرؤ على ضربه او التحرش به ، فبدر العنكبوت ، رغم كل ما

حدث ، ظل زعيم الحارة .

وكانت الحاجة ام امين صاحبة الدار تتذمر من وجود الجحش وراء النافذة ، لانه ينهق بصوت عال وقت القيلولة ، فيفسد عليها نومها ، كما ان العم تحصيل دار كان يتذمر لانه يضطر الى كنس روث البهيم من وراء النافذة بعد ذهابنا الى المدرسة ، وفضلا عن ذلك ، فان المقارنة بين حصانه الذي ما زال يعيش في خياله ، وبين هذا الجحش الهزيل تجعله يؤكد ان لا جدوى . (كان يقول في السهرة ان الحمار خلق للاشغال الشاقة، بينما الحصان خلق للعدو في البراري الخضراء) .

وعند الظهيرة، كنا نطعم طريف قبل ان نتناول غذاءنا ، فيقول العم تحصيل دار : يا لهذا الجحش الذي لن يجد يوما سرجا يعلو ظهره الاحدب فيأكل ويشرب وينام بلا فائدة . والحقيقة ، انه لم يبق نائما او واقفا وراء النافذة الى ما لا نهاية ، فقد اصطحبناه مرة الى مركز توزيع المؤن ، وحملناه كيس الطحين الذي استلمناه على بطاقة اعاشة العم تحصيل دار .

ولقد حمل كيس الطحين الصغير بجدارة ، ومشى به كما لو انه حصان .

وعندما وصلنا ، كان الطحين الابيض قد غطى جلد ظهره ورقبته ، وبعد ان انزلنا عنه كيس الطحين ، القى بنفسه على التراب ، واخذ يتمرغ ، وما هي الا لحظات ، حتى عاد له لونه الرمادي فوقف وهو يخنفر ثم اطلق نهيقا قصيرا .

ولم يعد قابعا طوال النهار وراء النافذة . كان يجوس الازقة باحثا عن رزقه ، وما اكثر قشور البطيخ وعروق الملوخية واوراق الخس الغليظة ، ولكنه كان يدور ويدور ثم يعود الى مكانه تحت النافذة .

ومع الايام ، اصبح طريف اليفا ومألوفا ، صار انيسا مثل الطيور والقطط .

وبدأ يكبر .. ويعلو .. ويصبح جلده داكنا ، صار ينهق بصوت عال .. وصار يتقن الرفس والعض والتكشير عن الاسنان. وخلال ذلك طمع به الطامعون ..

(المشط) بائع السمك حاول ان يتشاطر علينا ويستأجر الحمار بالمياومة ، المشط بائع السمك ابن حرام ، يبيع السمك المجلد ، يضعه في الماء الى ان يذوب الثلج ، ثم يجمعه في السلة ويدور به على الحارات مناديا بصوت عال ، زاعما انه سمك طبراني ، ورغم ذلك ، فانه لا يخلو من الطيبة . وقال لنا ان الحمار يجب الا يبقى عاطلا عن العمل ، وزعم ان الحمار سيهجرنا ذات يوم اذا لم نكبح جماحه بالشغل الشاق ..

لكن بدر العنكبوت ابن حرام ايضا ، واذا كان المشط بذرة ، فان بدر العنكبوت سنبلة .

وقد قال بدر العنكبوت : اسمع يا مشط ، عندما زرعك ابليس كان بدر العنكبوت في الكيس .. لا تستطيع ان تضحك علينا ، اذهب والا عفرت لك السمك في التراب . وفيما بعد جاور

حارتنا النور جاء في البداية نوري ونورية .. النوري يعزف على البزق والنورية ترقص .. وبعد انتهاء الرقصة تدور النورية حاملة الدف تجمع به النقود التي يجود بها المتفرجون . ثم امتلأت الحارة بالنوريات اللواتي يحملن الاطفال خلف ظهورهن ، ويشحدن ، ويمارسن التبصير وفتح البخت وقراءة الطالع وتركيب الاسنان النحاسية .

وبعدها جاء دور الرجال ذوي الشوارب المعقوفة الكبيرة ، الذين يبيعون الغرابيل والربابات واسرجة الخيول . ثم جاء الى حارتنا شمشون الجبار ..

رجل طويل ، له عضلات مفتولة ، ويطلق لحيته الطويلة . لم يكن نوريا ولكنه جاء مع النور ..

وقف بالساحة وقام بألعاب خارقة . كسروا صخرة فوق بطنه ، ونام على سرير من المسامير ، وجذب بلحيته الحبل فشد السيارة الى الخلف ، ثم ابتلع ما لا حصر له من المسامير والشفرات ..

كان رجلا خارقا ..

وظل بدر العنكبوت يحدق مذهولا ..

الحقيقة ان دهشته طالت في ذلك اليوم ..

لعله كان يفكر بالعملقة ، لعله كان يفكر بفعل الخوارق .

الصيـــف

كان صيفا جافا قاحلا .

وكان صيفا شحيحا ، قل فيه الماء ، وانتشر القمل ، وجفت البرك ، فاعت الافاعي .. الفضادع .. الجراد .. الديدان . جاع الناس ، نفقت الحيوانات ، عز القمح وصار طحين وكالة الاغاثة هو الغذاء الوحيد .

وهام بعض الناس في البراري ، واكلوا مـــن ثمرة (تفـاح المجانين) فأصابهم مس ، وقاموا بافعال جنونية .. دبت فيهم قوة مؤقتة ، فدحرجوا الصخور ، واقتلعـوا الاشجار مـن جذورها ، واحدهم صارع ذئبا ولوى عنقه .. ومن ثم ازداد عـدد المسوسين الذين اكلوا من التفاحة .. تلـك التفاحة اللعينة التـي كان اهلنـا يحذروننا من الاقتراب منها .

كان اهلنا يحذروننا من الاقتراب من هـذه الاشجار الشوكية الجافة التي كان مرآها يملأ النفس رعبا ..

ويقولون بان من يأكلها يصيبه الجنون ولا يكون مسؤولا عـن افعاله . ويقولون ايضا بأن من يأكلها يصبح له قوة الاسود . ودهاء الثعالب ، من يأكلها يصبح له زهو الطواويس ، وكبرياء النسور ، وقد يدفعه ذلك الى القيام باعمال جنونية . وعلاج المسوس فـي المراحل الاولى يكون بنصد دمه . يشطبون جلـده بشفرة حـادة ، ويتركون دمه يسيل ، فتخور قواه وينام على جروحه ..

كان بالفعل صيفا قاحلا ويابسا .

ولذلك ، فقد بدا الوالد من جديد يكتب العرائض من اجل الحصول على بطاقة تموين . ولكنه ظل ينتظر ـ دون جدوى ـ وصول لجنة الاحصاء المكونة من المستر بول والست ماري والمترجم ابو فقوسة . اصبحنا نأكل الخبز اليابس ، ونشرب الشاي المحلى بالسكر الاحمر ذى الطعم الكريه ، ورغم ذلك ظل بدر العنكبوت يحتفظ بطريف ، ويجهد نفسه من اجل اطعامه .

ويا للعجب .. اصبح طريف يأكل كل شيء . نفقت كل الحيوانات في الحارة وحتى الكلاب نفقت وظل طريف حيا ، دبت فيه غريزة حب البقاء ، فاصبح يأكل التراب والورق والشوك الجاف .

وكان بدر العنكبوت يخصه بوجبات ممتازة من اغصان الاشجار والتبن والكرسنة بين الحين والاخر الا انه بالرغم من ذلك ، صار بادي الهزال .. صار بطيئا ، وانتابه نوع من البلادة ، ودب فيه الخمول .

فقال لي بدر العنكبوت الذي يكره الضعف رغم انه ضعيف : يجب ان يستعيد هذا الحمار قوته . اتدري كيف يصبح حمارا بقوة الف حصان .

سألته : كيف ؟

اجاب : نطعمه من شجرة تفاح المجانين .

واذا لاحظ دهشتي قال : وما الذي يدهشك ؟

قلت : لقد شاهدت في السابق رجالا اكلوا من تفاح المجانين ، لكني لم ار حمارا فعل ذلك .

فأجاب : سوف ترى بعينيك كيف يصبح لهذا الحمار قوة الثيران ذات القرون الحادة .

المشـــط

ذلك المساء دخن العم تحصيل دار بشراهة ..

كان قد تلقى صرة من دخان (الهيشي) هدية من احد معارفه .

وكان والدي لا يدخن ، وانما يتسلى بلف السجائر .

كانا يجلسان امام دكان ابو عواد يتحدثان لحظة ، ويصمتان ساعة .. وكان البقال ابو عواد الذي يبيع قليلا ويكسب قليلا يغفو ويستيقظ دون ان يحسب للوقت حسابا .

ولقد مر على هذا المجلس (المشط) بائع السمك ، يحمل بكوعه سلته الكبيرة الفارغة ، وتفوح منه رائحة السمك بلا انقطاع. توقف المشط وطلب سيكارة هيشي . فلف له الوالد واحدة .. اخذ المشط نفسا عميقا ، واخذ يدعي الفطرسة ..

ـ كيف شغلك يا مشط .

سأله الوالد ، فأجاب مكابرا .

ـ أكل سمكا واربح كثيرا من الدنانير .

واثناء ذلك كان البقال ابو عواد قد استيقظ بعد ان وصلته من البيت زوادة العشاء .. بيضة مسلوقة ورأس بصل ورغيف خبز .

قال ابو عواد : تفضلوا على الميسور .

فأجابه الوالد والعم تحصيل دار في وقت واحد : سبقناك وتعشينا .. وخيّل اليّ ان المشط يشاور نفسه ، الا انه قال بخيلاء : من ينتظره عشاء كعشائي في البيت لا يأكل بيضة وبصلة .

فسأله الوالد ضاحكا : وماذا ينتظرك في البيت ؟

اجاب المشط : صحن من السمك المقلي ، وصينية سمك طاجن بالطحينة ، وصيادية سمك بالرز .

لعل العم تحصيل دار قد سال لعابه اذ انه مسح فمه بطرف كمه ، واذ ذاك نهرنا الوالد ، وامرنا بالعودة الى البيت للنوم .

عند الفجر ، جاءت زوجة المشط صارخة مستغيثة .. افاق الوالد والعم تحصيل دار والاولاد والنساء والقطط ..

قالت ان المشط قد اصيب بالتسمم فلبس والدي عباءته ، وهرع ليستدعي الدكتور باز ..

يا لهذا المشط الكاذب .. لم يجد ما يتعشى به تلك الليلة ، فبحث في اطراف البيت ولم يجد سوى علبة سردين فاسدة ..

والحقيقة ان احدا لم يعد ويستأنف نومه .. فلقـــد وضح النهار ، وصار هناك مادة الحديث .

ولم نذهب في ذلك النهار الى المدرسة ، ولم يؤنبنا احد على عدم ذهابنا .

ووجد والدي فرصته في ذلك اليوم ، فأخذني عنـد الحلاق ، ثم مررنا عند (الكندرجي) لتصليح حذائي فركب لـه نصف نعل ، وخلع منه بعض المسامير التي كانت تضايقني . واشترى لي قطعة هريسة ، ووعدني اذا ما جاءت لجنة الاحصاء في المستقبل ، واصبح لنا بطاقة تموين ، ان يصنع لي عصيدة .

وعندما عدنا في الظهيرة لـم اجـد بـدر العنكبوت ولا حماره طريف ، فعرفت انه ذهب الى الوادي .. الـى حيث اشجار تفاح المجـانين .

الحمـار المجنـون

جن الحمار في تلك الظهيرة . اصبح ثـورا هائجا .. انطلـق عبر البراري رافعا ذيله مكشرا عـن اسنانه . غارزا حوافـره فـي الارض انطلق عاديـــا عدوانيا ، فداهم في البداية حقـل البطيـخ مدحرجا كسرات البطيخ ، شاجا رؤوسها ، مسيلا دمها الاحمر ..

وبعد حقل البطيخ ، داهم بيوت النـور ، رافسا مـن اقترب منه قاطعا حبال الخيم ، قالبا الجرار والفرابيل واقفاص الطيور .

دب الذعر ، فهرب الرجال ذوو الشوارب المعقوفة والنساء ذوات الاثواب المزركشة والاطفال العراة .. ووصلت اخباره حارتنا ، فاختفى المارة ، واغلقت الدكاكين . كان في ذروة الهيجان. كان يطير . كان يتحول الى سفود احمر .

ووصل محطة البنزين التي يملكها الارمني . قيل انه رفس السيارة الواقفة فكسر زجاجها . قيل انه هجم على بوخوس اردكيان ، السمين الذي يضخ البنزين باليد ، فاوقعه ارضا ، قيل انه عضه ، قيل انه رفسه ، وداس في بطنه ، وكسر اسنانه ..

وعندما وصل الى حارتنا في نهاية الامر كان مثل موجة عاتية بلغت ذروتها وانكسرت وبدأت تنحسر .. كان قد استنفذ قواه ، فخفت سرعته ، وازدادت صعوبة تنفسه .

وعندما توقف ، وراء النافذة . عند الحائط .. خارت قواه، ونام على الارض . نام على ظهره بينما قوائمه مشهرة في الهواء . خنفر كما لو ان راسه ستنفجر . ضاقت حدقتاه . اطل الناس برؤوسهم . خرج البقال واللحام والسمسار والمشط واسعد الدجال .

سحب احد النور سكينة وغرزها في رقبة طريف . لم يقاوم كثيرا . شخب الدم ، تحركت قوائمه قليلا في الهواء ، ثم همد .

★★★

عند العصر جاء بدر العنكبوت . دخل اطراف الحارة ولم يجرؤ على المجيء الى البيت .

كان الذباب الازرق قد اخذ يتجمع على جثة طريف . اخذ يعشش في حدقتيه وعند رقبته حيث الدم المتجمد ، رقبته التي تتمدد على الارض وتلتصق بالتراب .

عند العصر ، الصق بدر العنكبوت راسه بالحائط ، واجهش بالبكاء .. بكى وبكى وواصل البكاء . ثم مشى . ابتعد وهو ينشج ، ثم انه لم يعد الى البيت في تلك الليلة .

تلك الليلة

طرق الشرطي الباب ثم دخل .

دخل الشرطي نفسه .

ومرة اخرى لعبط الخوف فوق وجه الرجال كالسمكة .. الخوف ذو الزعانف والمخالب والحوافر .

وقال الشرطي دون ان يطرح السلام : يا تحصيل دار .. شاويش المخفر يطلبك .

ارتجف . انخلع قلبه ، الا انه وقف . وكما فعل في المرة السابقة لبس معطفه القديم وانتعل حذاءه ومشى مع الشرطي ..

ولم يجرؤ اي من الرجال ان يقول كلمة . وعندما خرج لم يزعم احد انه كان سيمشي معه . وحتى والدي دفن راسه بكفيه وانكسر لعله انتحب ، الا انني لم اسمع صوت نحيبه .

ومرة اخرى اهين الرجال امام بعضهم البعض . وكما حصل في الماضي اخذوا ينسحبون واحدا واحدا ... وبقي والدي يتكلم مع نفسه ، او يصمت ، او يفكر بالجراة .

الست انجيل

جاء بدر العنكبوت الى المدرسة . جاء مبكرا . شاحب الوجه، متسخ الثياب . اين كان يختفي . ماذا اكل . لا احد يعرف ، ولا حتى بدر العنكبوت نفسه يعرف . ها هو الحاضر الغائب ها هو الغائب يظل غائبا . ينظر الى الاشياء ببلاهة ، ولا يسأل . يسند ظهره الى قماش الخيمة ولا ينطنط كالشياطين . دخلت الست انجيل . دخلت بيدها المسطرة . تفتيش .. تفتيش . تفتيش على المحارم . تفتيش على الاظافر . تفتيش على شعر الراس تفتيش على الوظائف .

وكان بدر العنكبوت . بلا منديل ومتسخ الراس والاظافر ، ولم يكن يحمل حقيبة كتبه .

سحبته الست انجيل من اذنه ، وقالت له امام طلاب الصف: يا كسلان .. وجهك الى الحائط . لم يدر وجهه الى الحائط .

قالت الست انجيل : ارفع يديك الى اعلى .

لم يرفع يديه الى اعلى ...

ارتجفت من الغضب ، وقالت بنزق :

ـ ارفع يديك والا كسرت هذه المسطرة على راسك .

لم يرفع يديه .. لم يرفع . وعند ذلك رفعت الست انجيل المسطرة عاليا ، فاحمر وجه بدر العنكبوت الشاحب ، من اين تدفق كل هذا الدم ؟

امسك يدها ، امسك بالمسطرة ، ثم سحب المسطرة من يدها وكسرها الى نصفين . وتقدم خطوة من الست انجيل التي تراجعت .. وتراجعت وتحول احمرار وجهها الى شحوب . استدار بدر العنكبوت ، وخرج من باب الخيمة .. خرج .. مشى . وعند ذلك ادركتنا الدهشة .

البراري

لم يعد بدر العنكبوت في الظهيرة الى البيت كما لم يعد العم تحصيل دار .

ويقال بأن المشط بائع السمك ذهب الى المخفر ليسأل عنه ، فناله لطمة على وجهه .

وحكيت لوالدي حكاية بدر العنكبوت مع الست انجيل ، فقال لي اذهب وابحث عنه ، واعده معك .. لا تعد الا وهو معك.

بحثت عنه في الشوارع والازقة والساحات فلم اجده . ولم يبق امامي سوى البراري . تخيلته في البراري يأكل الفطر والبقول وسيقان المرار والنباتات الشوكية ويحلم بطيور الحجل .

وفي الحال ، اسرعت عدوا الى تلك البقاع .. وجدته جالسا على صخرة ، فنظر الي بسخط وريبة .

ـ هيا معي يا بدر العنكبوت ..

كانت تطل من وجهه شجرة من قرون الفلفل الاحمر .. كانت بقع حمراء تملأ جلد وجهه . فعرفت على الفور انه اكل شيئا من تفاح المجانين .

ـ لماذا فعلت ذلك .. لماذا ؟

لم اكن بحاجة لان اسمع اجابته .. اليس هو الذي يبحث عن سر القوة ؟ اوليس هو الذي يريد ان يصبح بقوة ثلاثة احصنة واربعة ثيران ؟

ـ هيا نعد الى البيت .

غير ان بدر العنكبوت اشاح بوجهه ، لعله كان يحدق باشجار تفاح المجانين الحمراء الوحشية ..

ثم التفت الي وقال بصوت خشن :

ـ يجب ان نهاجم المخفر ونضرب الشاويش حسن .. يجب ان ندوس في بطنه ، ونلعن اجداد اجداده .

كيف يسري الغضب والوجع والقهر في العروق مع الدماء الساخنة ؟ كان يعني ذلك .. بالتأكيد كان يعني ذلك .

ـ هل تشترك معي في الهجوم .

سأل العنكبوت ، فلم اجاوبه .

ـ هـل تخـاف ..

لم استطع ان اقول كلمة ..

اشار الى اشجار تفاح المجانين ، وقال :

ـ تفاحة واحدة تجعل منك رجلا .. رجلا يعرف كيف يثـأر لكبريائه وكرامته .

وغير بعيد كانت الاشجار الحمراء الوحشيـة تصهل وتـزأر وتنفجر ثم تعيد تكوين نفسها . قفز من مكانه ، ودفعني نحوها ثـم قطف واحدة وناولني اياها .

ارتجفت يدي . كأني احمل قنبلة .

صاح بدر العنكبوت :

ـ كلها والا لن تعود صديقي .

كانت تبدو شهية .. طافحـة .. تقـدم نفسهـا بشراهة ، فأكلتها . اكلتها دفعة واحدة وفي الحال تحولت الى جمرة . ناولني ثانية .. وثالثة ، فصرت سفودا احمر يقترب من درجة الذوبان..

ثم احسست انني اتحول من ماء الى بخار . ومن حولي كـان البرقوق يتحول الى عيون ابقار ، وكان نبـات عرف الديك الـذي يتوج راس تلـك الطيور الصلفة ينبت عـلى كتفي وعـلى رؤوس اصابعي .

ـ ها قد اصبحت قويا .. قال بـدر العنكبوت . وبعدهـا ، دحرجنا بعض الحجارة الكبيرة مـن القمة الـى سفح الوادي ثم تصارعنا ، فاوقعته ارضا ، وقررنـا الانتظـار حتـى المساء لنبدأ الهجوم على الشاويش حسن . واكلنا المزيد مـن تفاح المجانين .. وعند العصر كنت اتحول الى قطار بداخله طن مـن الفحم الحجري الذي يحترق ، فيسري عبر اوردتي وعروقي واوعيتي الدموية .

وكنت امشي حول اشجار التفاح ، ويمشي بـدر العنكبوت ورائي . كنت اترنح احيانا .. اخرج عن القضبان .. وتحترق في داخلي الورود السوداء . وقبل الغروب جـاء والدي ومعـه بعض الرجال يبحثون عنا . لم نستطع الهرب . الحقيقة اننا حاولنا ، الا ان قوانا كانت قد خارت تماما .. امسك والدي بيـدي ، وامسك اخرون ببدر العنكبوت . فمشينا مثل جذوع الاشجار التي تطفو . وفي حوش الدار سمعتهم يتحدثون وقال احدهم : يجب فصد الدم الفاسد من جسميهما قبل فوات الاوان .

فخلعوا عني ملابسي ، وجاء اثنان من الجيران وامسكا بيدي وقدمي ..

واقتربت الحاجة ام امين وبيدهـا شفـرة حادة : واخـذت تشطب خدي الايمن .

الضربة الاولى غاصت في قلبي .. شلعتني من الارض ، فنزل الدم الاحمر القاني .. الضربة الثانية في الشفرة غاصت في تلافيف دماغي .. الضربة الثالثة جعلت الوجع يدوس باظلافه الكبيرة فـي بطني .

ثم تحول الشطب الى بطة رجلي .. ويـا للعجب كنت عاجزا عن الصراخ ، وفي الحـال غفوت . وضعوا دثـارا فوق جسدي .. دثارا ثقيلا ، واغمضت عيني على لون لا هـو بالاسود ولا بالابيض ، ولا بالرمادي ربما كان بنفسجيا .. ليلكيا ..

كنت ارى الملون وانا مغمض العينين . واذ ذاك كـانت تهبط بقع شتى ذات اشكال تشبه المظلات او الدبابيس او نثار الزجاج .

وكان الفضاء البنفسجي يـزداد انفراجـا ويتسـع ويتسـع ويتحول الى دوائر تنداح وتنـداح .. وتتلاشى . ثم في اخر الليل ـ وكنت قد احترقت واحترقت واحترقت ـ صـرت خيطـا مـن الدخـان ...

الحيـاة

توقفت الحياة ايضا اياما عديدة ..

ثم عادت من جديد ..

شفيت ، وشفي بدر العنكبوت وجاء الدكتور باز وتشاجر مع والدي بسبب المجزرة التي فعلوها بنا . وعكف الدكتور بـاز يمسح جراحنا ، وتوسط لدى شاويش المخفر ، فاخرج العم تحصيل دار بالكفالة . وعندما عاد العم تحصيل دار ظـل منكسرا لبضعة ايام ، الا انه كان يتحدى اليأس بالحياة .. لم يؤنب ولـده ، ولم يضربـه بحزامه العريض . ولم يعاتب احدا من رجال الحارة لانـه لم يذهب معه الى المخفر .

وشيئا فشيئا عاد للشيخين جوهما الاليف . ظلا يحلمان بالفرس الشقراء والحصان الذي يطوي الارض طيا .

وظل الوالد يتذكر سوء الحال ، ويلعن ديك الوكالة والمستر بول ولجنة الاحصاء .

ودخل حياة الشيخين صديق جديد هو المشط بائع السمك.

والحقيقة اننا احببناه .. واحببنا اكاذيبه وادعاءاته ومغامراته الخرافية .

الجزء الثالث :

عودة الخيال

صار المشط صديقنا .

صحيح انه يكبرنا بما لا يقاس ، ولكنه في اعماقه طفل يصغرنا. وقد احببناه بالفعل .

احببنا اكاذيبه وادعاءاته وحكاياه الخرافية .

أحببنا طيبته ورائحة الزنخ في ملابسه وشاربه الذي يطـول من طرف ويقصر من الطرف الآخر .

وقد شعر ذات يوم بأن غبشا يغطي عينيه ، فقال له الوالد : انه الرمد ..

وقال العم تحصيل دار : انك مصاب بالهدباد وعليك بالزفر.

ثم ذهب الى طبيب المدينة وعاد يلبس نظارة .

وقد احببنا ايضا طول نظره ، وقصر قامته .

وتعلمنا منه الشيء الكثير ..

تعلمنا لعب (السيجة) و (القطار) ..

تعلمنا منه كيف نحكي بلسان العصفورة فنفهم عـــلى بعضنا البعض ولا يفهم الشيخان .

وتعلمنا منه صناعة (العنبر) و (الاقمار الملونة) و (عصفورك يا ولد) .

وقد نسينا او تناسينا حادثة تفاح المجانين ، ولم يعد اي منا يجرؤ على ان يذهب الى البراري ، او حتى يرحل خياله الى حيث تلك النباتات الوحشية .

★★★

وذات يوم وقف بالباب شرطي من المخفر .

دب الهلع في القلوب ، وتناولت امي غطاء راسها ، ووقف ابي باعياء . ماذا حدث ؟ هل حقا ان احدا مدعو للمثول في المخفر بين يدي الشاويش حسن ؟

غير ان الشرطي بادر الى القول مخاطبا والدي :

ـ هناك من يسأل عنك في الخارج .

واشار الى سيارة تقف وراء الباب ، ويقف بجانبها احد الخواجات .

قالت امي : لعلها لجنة الاحصاء .

كانت السيارة بيضاء ، ويرفرف على مقدمتها علم ، وكانت ثمة امراة شقراء تضع على عينيها نظارة طبية تجلس في المقعد الخلفي . ولعل والدي قد ارتبك او تلعثم او اضطرب او فقد رشده ، فقد ركض باتجاه السيارة حافيا . اما الوالدة فقد اخذت ترتب الغرفة وتنسقها على عجل وقد اكتسى وجهها بالفرح .

عاد والدي وبيده رسالة ... وجهه قد انطفأ .

نظرت اليه الوالدة بقلق وامّحت تلـك الاضاءة النادرة التي برقت على محياها .

فقال : انهم من الصليب الاحمر الدولي ، ولقد احضروا لنـا رسالـة ...

مسحت يديها بالفوطة .

ـ رسالة .. رسالة ممن .

قلّب الوالد الرسالة ، وقال :

ـ انها من عمران .

وبعد حوار قصير بينهما ، عرفت ان عمران هو احـد اقارب امي ، وانه مسجون في (اسرائيل) وقـد ارسل هـذه الرسالة بواسطة الصليب الاحمر ليخبرنا انـه قبض عليه اثنـاء اجتيازه الصحراء قادما من قطاع غزة .. وهكذا .. وهكذا جاء للوالدة هم جديد ، اما الوالد الذي خاب ظنه ولم تأتـه لجنـة الاحصاء فقـد انزوى في الغرفة ، ثم تمدد على الحصيرة ونام على غير عادة .

في الصباح التالي ، وكالعادة نسي الوالـد موضوع لجنـة الاحصاء ، وخرج ليشرب القهوة مع العم تحصيل دار .. وكان من الطبيعي ان يخبره بأمر تلك الرسالة ..

ـ عمران .. يا رجل عمران له قوة اربعة رجال يهدم الحائط بضربة من يده .

كان الوالد قد تغلب على خيبة الامل فها هـو يتكلم بمحبـة واشفاق عن هذا الرجل الكبير المسجون عند اليهود .

ـ ولماذا سجنه اليهود ؟

تساءل العم تحصيل دار ، فقال الوالد قول رجـل عارف :
انه من الفدائيين .

فشدني بدر العنكبوت من يدي وهمس : هل تسمع .. ان خالك فدائي .

وفي الليلة التالية كان والـدي يقـول ان الخـال عمران قطع الصحراء بليلتين ، ومعه رشاش وسكين حـادة ، ينصب الكمائن لافراد العدو ، وينتقل من قرية الى قرية ومن مدينة الى اخرى.. ويزرع الرعب في قلوب سكان المستعمرات وظل سنة كاملة يتخفى ويجاهد دون ان يكتشفوه ، ثم وقع صدفة في كمين وقبض عليه ..

وفي الليلة الثالثة يسرد الوالـد قصة الكمـين فيصمت العم تحصيل دار ، ثم يتحسر على الايام الماضية ويتذكر ايام عبد الرحيم الحاج محمد والشيخ فرحـان السعدي ، ويتذكران حكايـا الكف الاسود ومقتل الجنرال اندراوس ، ونسف اوتيل الملك داوود .

وفي الليلة الرابعة يصمتان ، فقد استنفذا كـل القصص .. ولم يعد بمقدور الوالد ان يتكلم عن الخال عمران اكثر مـن ذلك ، وان كان قد ترك الباب مفتوحا للمزيد في ليلة خامسة .

★★★

اما الخال عمران فقد اصبح منافسا للمشط ، المشط الذي يسبح فوق شبر ماء ، ويبالغ في اكاذيبه البيضاء ، والذي يظل رغم كل شيء خفيف الظل كالشطار .

صحيح ان الخال لا يزال في السجن ، الا ان احاديثنا عنه لم تنقطع ، فكان المشط يتظاهر بعدم الاهتمام ولكنه في حقيقة الامر يفتاظ ويفتأظ . اما غيظه فلم يكن من ذلك النوع الحاقد الاسود ..

كان يعترف احيانا ان الخال عمران اقوى منه بنية ، ولكنه يوازيه بالشجاعة ، ثم يسرد لنا المشط ما تيسر من الكذب اللذيذ والمبالغة العذبة .

ولم نتوقف عن استراق السمع عندما يعاود الشيخان الحديث عن البطولة وعن ثوار ٣٦ .. ففي لحظات التألق ، لحظات البطولة الخارقة ، والفداء العظيم ، يضيء وجه بدر العنكبوت الشاحب ، وتتسلل ابتسامة ما على شفتيه ، احس به يكبر ويكبر ، يتعملق ، وتزار عيناه ، ويطبق على سر القوة بكلتا يديه .. لقد وجده .. اليس كذلك ؟

★ ★ ★

في الاسبوع الثالث . توقفت سيارة الصليب الاحمر نفسها ، وسلمت والدتي رسالة ثانية . لم يكن الوالد موجودا ، لذلك ناولتني الرسالة بلهفة : اقرأ لي .. اقرأ لي اخبار خالك عمران . قرأت لها الرسالة .. سلام وكلام وتوقعات باقتراب الافراج ..

فانهمرت الدموع من عينيها ، ورفعت يديها الى السماء طالبة له السلامة وفك الاسر .

وكان مع الرسالة اشعار من الصليب الاحمر يعلن عن استعداده لنقل رد على الرسالة .

فناشدتها : لنكتب للخال رسالة يا امي .

وعندما نقلت رغبتي للوالد في المساء ، تردد ، ثم اعلن عن خوفه من الحكومة ، ولكن العم تحصيل دار طمأنه ، وقال له ما دامت الحكومة هي التي سمحت للصليب الاحمر بنقل الرسالة فلا بد انها توافق على نقل الجواب ..

واذ وافق الوالد اخيرا ، فانهما شرعا على الفور في كتابة الرد ، وجاء الرد طويلا ، فقال لهما المشط ان الرسالة يجب ان تكون بلغة البرقيات مختصرة وموجزة ، فأعادا كتابتها ونحن نسترق السمع .

★★★

جاءت زوجة (الفورمن) بعد غياب طويل . جاءت متوردة ، مقطرة مثل الندى ، تلف شعرها بمنديل فاقع بلون شعرها الاصفر المجدول .

ورغم الصداقة القديمة ، فان الوالدة قد استقبلتها ببعض التحفظ .

جلست زوجة (الفورمن) وكأن شيئا لم يكن واخذت تحكي

وتحرك ذراعها التي تحيط بهما الاساور الذهبية ، ثم تحول حديثها الى ضحك وصخب .

وبدأ تحفظ الوالدة يخفت شيئا فشيئا ، وبعد فنجان القهوة الذي لا بد منه ، عاد ذلك الجو الاليف الذي كان لهما قبل حادثة بدر العنكبوت .

وقد بادلتها الوالدة بعد ذلك الحديث الاليف ، وتناست الحادثة ولم تعاتبها .

وروت لها قصة الخال عمران وافاضت حتى بدا الاهتمام على محياها .

ثم عندما انتبهت زوجة الفورمن الى وجودي ، ضمتني الى صدرها ومسحت شعري بيدها ، وقبلت خدي ثم قبلت فمي مثلما يفعل الحمام الابيض .

★★★

كانت زيارة زوجة الفورمن هي حديث السهرة في ذلك المساء بين الشيخين ، وقد توقعت ان تغضب زيارتها الوالد ، الا انه استقبل خبر زيارتها بالصمت .

وقال العم تحصيل دار ان خلاف الرجال لا دخل للنساء فيه.

وقال المشط : ولكن حذار من ان تكون زيارتها مقدمة لعودة الفورمن الى هذا المجلس .

فانتفض العم تحصيل دار ، ورفع عصاه واشهرها في الهواء

كالبندقية وقال : لو جاء الفورمن فسوف اكسر هذه العصا على راسه .

وقال الوالد : اذا جاء الفورمن فسوف ابصق في وجهه واطرده ...

اما انا فقد كنت اروي لبدر العنكبوت كيف ضمتني زوجة الفورمن الى صدرها ، وكيف قبلتني مثلما تفعل العصافير والحمائم البيضاء .

★ ★ ★

وجاءت رسالة ثالثة من الخال عمران يعلن فيها عن اقتراب موعد الافراج عنه وابعاده .. ففرحت الوالدة ، في حين رافق فرح الوالد شيء من الانقباض .

كان الوالد يخشى الحكومة وسوء الحال .

وكانت الوالدة منشرحة لان الله سيفك اسر الخال ويعود اليها سالما غانما .

ولقد جاءت بعد اسبوع زوجة الفورمن بكامل زينتها وبعطرها واساورها ، فقبلتها امي ، وكنت ارقبها وهي تستمع الى الوالدة وتتابع معها قصة الخال ، ثم وهي تدخن السيكارة ، ويترك احمر الشفاه اثره على طرفها .

وبعد شرب القهوة ، اخذت زوجة الفورمن تقرأ لوالدتي

فنجانها ، فقالت لها وهي تغامزهـا : سوف يأتيـك شخص عزيز وغال .. يأتي بعد اسارتين . بعد يومين . بعـد اسبوعين . بعـد شهرين .. والله اعلم .

★★★

عـودة الخـال

وقد خرج الخال حقا بعد شهرين .

أبعد عبر الحدود ، فأحضروه للتحقيق ، وانتقل مـن مخفـر الى مخفر الى أن وصل الى مخفر الشاويش حسن في حارتنا .

ومن جديد جاء الشرطي وابلغنا بالنبأ ، فظهـر علـى وجـه الوالدين مزيج من القلق والدهشة ، وارتبكا .. ثم ارتبكا ..

وزارنا في تلك الليلة عدد لا يحصى من الناس . لـم يقـل اي منهم كلمة ، ولكن ملامحهم كانت تنطق فصيح الكلام .

وفي الصباح كان الوالد يبحث عن كفيل يمضي كفالـة بمائـة دينار لاخراج الخال مـن المخفر .

ولكن .. هيهات !!

فالجيران وجيران الجـيران والمعـارف والاقـارب والاعمـام والاخوال والقاصي والداني.. جميعهم يعيشون حياتهم اولا بأول..

ولم يعد لـدى الوالـدة اساور ترهنهـا او فـرشات صوف تبيعها ، وقد وصلنا الى درجة من الهزال بحيث كنا نفكـر كيـف نتدبر امر الغداء ونحن نلوك افطار الصباح ، ونفكـر وقت الغـداء كيف نستطيع الحصول على طعام العشاء .

واخذت الرقع تزداد فوق سراويلنا ، وفي ذلك الشتاء تسلـم

بدر العنكبوت بطانية من احدى الجمعيات الخيرية ففصلها له العم تحصيل دار معطفا . وقد اصبح موضع تندر اولاد الحارات المجاورة ، كما أن منظر بدر العنكبوت صار محزنا وهو ينوء تحت ثقل ذلك المعطف المصنوع من الخيش او اللباد والذي يشبه البردعة .

هكذا اذن بلغنا من الفقر أرذله ..

وها هو الوالد ينشف ريقه وتتعذب روحه دون ان يجد كفيلا للخال الفدائي الذي لا يدري الى اي درك من البؤس وصلت اليه حالنا .

★ ★ ★

ثم ان بدر العنكبوت اشتعل ، واصبح كتلة من اللهب .

ذهب وجاء . راح واتى . طار في الهواء وارتطم في الارض .

كيف يكون الخال في سجن الشاويش حسن ؟

كيف يكون الفدائي بين جدران اربعة ؟

فكر وفكر .. ما العمل ؟

سرح في الشوارع ، غاب وغاب ، حتى خيل الي انه ذهب الى البراري ..

قال لي عندما عاد : كيف يكبلون ايدي الجبال الهائلة .. كيف يشدون وثاقها ؟

كيف يحبسون الفضاء الواسع .. كيف .. كيف .

وحين شرد وظل ساهما ، خطر ببالي انه يفكر من جديد كيف يدوس في بطن الشاويش حسن ، كيف يذبحه ، كيف يأكل لحمه نيئا .

★ ★ ★

سحبتني الوالدة من يدي مساء . ومشيت معها على عجل ، ولقد عرفت ـ دون ان تقول لي ـ انها تتوجه الى بيت الفورمن .

استقبلتنا زوجة الفورمن ، وكانت بقميص النوم .. قميص نوم شفاف وقصير يكشف عن ذراعيها وساقيها وصدرها .

وقد جلست معنا دون ان تبدل قميصها ، ولم يلفت نظرها وجودي ، ولم تلاحظ انني بدات انمو واكبر ، وان كانت الوالدة قد لاحظت انني انظر للمراة نظرة اكبر من سني .. لذلك ، طلبت مني ان انتظرها في الحارة ..

فخرجت وانا اعرف تماما ان الوالدة ستستعين بالمراة لاقناع زوجها الفورمن بكفالة الخال عمران .

★ ★ ★

في يوم تال ، خرج الخال ..

جاء عبر الزقاق يصطحبه شرطي من المخفر . ويصطحب الشرطي الفورمن بنفسه. الفورمن بقامته الطويلة واذنيه الكبيرتين.

وقد كنا ـ بدر العنكبوت وانا ـ نقف حافيين ، تغوص

اقدامنا في الوحل ، وتشرئب عيوننا نحو الخال .

كان وجهه متعبا . مدورا . سمينا بعض الشيء . مجهدا . طويل شعر الذقن . ينظر الى الناس دون ان يظهر على وجهه أي تعبير . يمشي وكأنه لا يدري الى أين . كأنما مات شيء في اعماقه . . أين الخال عمران الذي كنا ننتظر ، والذي كنا نشاهده في رسائل الصليب الاحمر ؟

ووراءهما ومن حولهما كان الناس ينظرون ويصمتون .

واقبلت الوالدة وهي تلف على راسها الايشارب ، وشقت طريقها بين الناس ، وركضت نحو الخال فقبلته . قبلت خديه وراسه ، واذ ذاك اطلقت احدى النساء زغرودة . زغرودة مجروحة ، شاحبة ، مبحوحة ، فنزلت دموع الخال واخذ يبذل جهدا من اجل ان يحافظ على تماسكه .

اما الوالد ، فقد حبس نفسه في غرفة العم تحصيل دار .

كانا يغلقان باب الغرفة لكيلا يواجها الفورمن .

الا ان الفورمن الذي يصطحب الشرطي دخل حوش الدار ، ودخل معه الخال ، ودخل معهما الالم والوجع والقهر وانا وبدر العنكبوت .

واضطر الوالد تحت الحاح الوالدة والشرطي ان يفتح الباب ويخرج فيعانق الخال عمران ويوقع على ورقة الاستلام والتسليم .

واضطر ايضا ان يمد يده ويصافح الفورمن دون ان ينظر الى وجهه .

تلك الليلة ، بعد ان خرج الفورمن ، دخل الخال الى المطبخ ، فاستحم وحلق ذقنه ، ولبس جلابية وخرج وسيما ووقورا .

تناولنا العشاء ببطء ، وشربنا الشاي ببطء ولـم يتكلـم الا قليلا ، ولم يكلمه أحد الا عبارة التهنئة بالسلامة . ثم جاء المشط . دخل ، فخلع حذاءه عند الباب ، وقبل الخال . وجلس امامه علـى البساط ، وجاء المشط أيضا حليق الذقن ، نظيف المـلابس علـى غير عادة . وبدا انه يجيء متهيبـا ، ويحسب لمقابلـة الخـال الف حساب .

فجلس المشط مرتبكا ، ينظر الى الخال بين حين وآخر كأنما ليسبر غور هذا الرجل ، وبادله الخال نظرة بنظرة ، مثل من يلقي التحية فيتلقى تحية أحسن منها ، وبعد حين تبادلا بعض الكلمات ، وسريعا دخل كل منهما مزاج الآخر ، او هكذا بدا علـى الاقـل .. وربما خطر للخال ان هـذا الشاب قـد يكـون ظهـيرا او نصـيرا فيشد الازر، وربما خطر للمشط ان هذا الرجـل قد يعطيـه سر الليل المتفق عليه ما بين وردة الحنون وشقيقة النعمان .

وظلا يتحدثان بينما الوالد يعد حبات المسبحة او يمررها بين اصابعه دون عد ، والوالدة تتهيأ للخروج تاركة الرجال يتسامرون بحرية وقـد شاب فرحتهـا وجوم .. بـذلت جهـدا لكي يغوص في الاعماق ولا يطفو على وجهها .

ثم دخل العم تحصيل دار مصطحبا بدر العنكبوت .

دخل فأجلسه الوالد في صدر البيت ، وهو يعلن أنه موجوع ودانخ . اما بدر العنكبوت فقد ظل واقفا وخاشعا كأنه امام محراب ..

قلت للخال : هذا بدر العنكبوت صاحبي .

فمد له الخال يده وصافحه، ورغم ذلك ظل العنكبوت متهيبا.

ثم دخل الدكتور باز يحمل حقيبته ، وقبل ان يقوم احد بالتعريف به ، فتح حقيبته واخرج السماعة وخاطب الخال :

ـ هيا تمدد لافحصك .

وقد انصاع الخال ، فاعتكرت عينا بدر العنكبوت وهمس :

ـ لماذا انصاع خالك بهذه السهولة ؟

وبعد ان انهى الفحص قال الدكتور باز :

ـ صحتك ممتازة مثل الحصان ما شاء الله .

وعندها صار العم تحصيل دار يشكو ، والشكوى لغير الله مذلة ، ويردد ما سبق ان قاله عن وجعه .

اخرج الدكتور باز من حقيبته زجاجة مقوي ، ماركة (ابو شنب) ..

وقال : يا تحصيل دار اشرب من هذه الزجاجة ثلاث مرات في اليوم وراجعني بعد ثلاثة ايام .

وفي نهاية السهرة كان الجالسون قد انقسموا الى حلقتين..

الوالد والعم تحصيل دار والدكتور باز شكلوا حلقة ، اما الحلقة الثانية فقد جمعت الخال والمشط وبدر العنكبوت وانا ...

★★★

ايقظتني الوالدة باكرا لتناول الافطار في الصباح فاذا امامي وليمة .. زيت وزيتون ولبنة وجبنة وزعتر ومناقيش بالزعتر وفطائر بالزيت والسكر والعسل .. وحول المائدة ارباب البيوت في الحوش وبعض البيوت المجاورة . احضروا معهم طعامهم وجاءوا يفطرون مع الخال .. احضروا معهم قلوبهم البيضاء ، وارواحهم الجميلة. احضروا نفوسهم الطيبة ، وشهامتهم المعتادة (وهذا اليوم كانت فوق العادة) .. جلسوا حول الخال يبتسمون فيبتسم بدوره ويتألق ويضيء كالمشعل .

وانهم لكذلك ، واذ ببدر العنكبوت يصيح من الغرفة الاخرى صيحة شقت هذا العقد الى شقين ، فوقفوا يستطلعون الامر .. كان العم تحصيل دار في الغرفة الاخرى قد وقع مغشيا عليه ..

انطفأ الفرح وعبست الوجوه من جديد ..

ايه .. انها سنة هذه الحارة : قليل من الفرح وكثير من الحزن ..

★★★

الايام الاخيرة لرجل يحب الحياة

الحدث الجديد غطى على وهج الخال ..

وانتقلت الابصار الى منزل العم تحصيل دار ..

وقع مغشيا عليه فجاء الدكتور باز وحقنه ابرة في الوريد وابرتين في العضل ، وحمله الرجال الى الفرشة ، وخلعوا عنه ملابسه والبسوه جلبابا .

ورغم تعليمات الطبيب ، ظل الرجال يزورونه ويتحلقون حول فراشه ويشعلون السيجارة من أختها ، والخال شخصيا ، يعطيه الدواء حسب الوقت ، والوالد يقرأ فوق راسه سورة بعد اخرى..

وقد راح العم تحصيل دار في غيبوبة طويلة ولم تفلح في شفائه كل حقن وادوية الدكتور باز .

وهكذا بعد أسبوع من الحادث ، قرر الوالد ، اذ انه الوحيد الذي يستطيع ان يقرر الان . قرر ان يداويه بواسطة الطب الشعبي .. جاء الحلاق الذي يداوي بواسطة العلق ثم مجبر العظام الذي دهن جسم المريض بالزيت والكافور .. وجاء .. وجاء ...

★★★

ثم قرر الوالد ان يداويه بنفسه بواسطة كاسات الهواء .

وبالرغم من ان الخال كان يرى ان يستمر علاج العم تحصيل دار عن طريق الدكتور باز ، الا انه لم يمانع في مساعدة الوالد عندما طلب منه أن يسند ظهر العم تحصيل دار ليتمكن من معالجته بكاسات الهواء .

يأتي الوالد والخال والمشط وبعض الجيران .. يكون الوالد

قد صف أمامه كاسات الشاي الفارغة وجهز قطع الورق الصغيرة على شكل اقماع او اجراس . يشعل الورقة ويضعها داخل الكاسة ، ثم يطب الكاسة والورقة تشتعل على ظهر العم تحصيل دار العاري، فتنطفيء الورقة وتمتلىء الكاسة بالدخان الابيض ، واذ ذاك تمسك اطراف الكاسة بالجلد ، تمسك جيدا ، وتمتص ـ حسب تعبير الوالد ـ كل الآلام المبرحة والاوجاع المستحكمة .

ولقد تحسن العم تحصيل دار قليلا .. فتح عينيه وحكى...

ماذا حكى ليس مهما .. المهم انه حكى . قال كلاما مبهما ،

وسأل عن بدر العنكبوت واوصى الوالد به خيرا ، وما لبث بعدها أن عاد الى غيبوبته .

ومرة ، استيقظ من غيبوبته ، فسأل عن فرسه الشقراء وخاطب زوجته التي ماتت منذ عشر سنوات لتجهز له الزاد والزواد ، ودبت به قوة خارقة ، فاستند دون ان يساعده أحد ، وصاح بالمراة مرة اخرى مستعجلا اياها ، ساخطا على بطئها ، ثم مد يده الى الجدار فاستند اليه ، وفي اليد الاخرى كان يمسك زمام الفرس الشقراء الاصيلة. وكان ينظر اليها ـ يراها ولا نراها ـ فيترك زمامها ويمرر يده على رقبتها الطويلة وشعرها الاشقر الجميل الذي يرتمي على طرفي عنقها النبيل . كأنما يعتذر اليها بسبب اهمال لحق بها . كأنما يحسن عليها ليدفعها لتناول المزيد من الطعام او الأخذ بمزيد من الشرب .. وها هي ترتوي ، فيبتسم .. يبتسم كما لم يبتسم في حياته وتغرورق عيناه ، وفجأة يقع مرة اخرى مغشيا عليه .

★★★

وبعد حين ، صار يتعين على الخال ان يفكر بالطريقة التي يجب ان يحصل بها على قوته .

كان يرى بعينه سوء الحال وضيق البيت الذي نسكنه .

ولم تكن القروش القليلة التي يدسها المشط في يده بين الحين والآخر ، لم تكن تكفي الا للسجائر الرديئة . لذلك حين اصبح الصباح ذات يوم خرج دون ان يقول كلمة واحدة ..

انتصف النهار دون ان يعود .

وعند العصر جاءت زوجة الفورمن لزيارتنا فبكت الوالدة مر البكاء ملخصة بهذا الانفجار القهر والمعاناة والفقر ومخزون الجوع.

وعندما دست زوجة الفورمن بيدها ورقة من فئة الدينار مسحت والدتي دموعها وحاولت ان تتمنع . الا ان زوجة الفورمن ربتت على يدها وقبلت رأسها .. ثم خرجت .

وعند العصر ايضا ساءت حالة العم تحصيل دار ، وساءت معها الحالة المعنوية لوالدي .

وهذه المرة علق له الدكتور باز المصل في يده .

أخذت أراقب السائل وهو ينقط من الكيس نقطة نقطة ، يسري عبر الانبوب الرفيع ويصب في ذراع العم الرفيعة الذاوية .

يطبق العم جفنيه في وجه شاحب طال فيه شعر الذقن الابيض . ينام او يغمى عليه ولكن الالم العظيم يبرز من اخاديد الوجه الصامت .

أما بدر العنكبوت فقد بكى بصمت .. ثم بصوت عال ..

حاول المشط ان يسكته ، فنهره الوالد قائلا : اذا لم يبك الفتى والده فمن يبكي اذن ؟

وقد خرج بدر العنكبوت باحثا عن فضاء ...

وعاد الخال في المساء .

عاد ملطخ الثياب بالقار والزفت .

لقد وجد عملا في رصف الطرق ، وها هو يعود بعد يوم شاق.

استقبلته الوالدة باشفاق . سخنت له الماء ، وصبت على يديه ورأسه . وسمعتها تقول : ـ لماذا اشتغلت يا أخي بهذا الشغل الشاق ..

واذ عاد بدر العنكبوت ، وشاهد خالي مهانا مكدودا بدا كأنه قد كف فجأة عن البكاء . وادهشه منظر الخال ، وظل ينظر اليه مستغربا

وبعد حين دخل الخال ليطمئن على العم تحصيل دار .

فقال بدر العنكبوت : ـ كيف يفعل خالك هذا بنفسه ..

يجوع الفدائي ويأكل التراب والحشيش والاقاعي ولا يشتغل مثل هذا الشغل .

وما كاد يتم كلمته حتى سمعنا الرجال من الغرفة الاخرى يهللون ... لا اله الا الله .. لا اله الا الله ... فصرخت والدتي من أعماقها ..

لم نكن بحاجة لمن يقول لنا ان العم تحصيل دار قد مات .

ليلـة موتـه

ليلة موته حدثت مظاهرات في المدينة ، واحرق المتظاهـرون مبنى النقطة الرابعة .

سمع الفورمن بالخبر أثناء وجوده في منزل الفقيد .

كان الوالد يقرأ الآيات امام الجثمان ، والخال يعبس ويتحول وجهه الى قطعة من الصخر ، والمشط يدخن ، وعدد من الرجـال يعتصرهم حزن واضح ، وبدر العنكبوت يحزن على طريقته بالامتناع عـن الكـلام ..

فجاء من يقول للفورمن بصوت خافت ـ سمعناه رغم ذلك ـ ان المتظاهرين قد احرقوا مبنى النقطة الرابعة .

تلقى الفورمن الخبر بكثير من الهدوء . لم يبد انفعالا ، ولعله كان يعرف انهم سيفعلون ذلك ، او لعله كان مرتاحا لانه لـم يكـن موجودا في المبنى في تلك اللحظة .

وقد بالغ في هدوئه ، وزجر الرجل الذي واصل الهمس ، ثم قال بصوت عال : الفاتحة على روح الفقيد .

قرأ الرجال الفاتحة ، ومسحوا وجوههم بأكفهم . وتـوقف الوالد عن القراءة بصوت عال ، وظل يتمتم بصوت خفيض ، وخلال ذلك سمعت أصوات طلقات نارية .. فتوقف الوالد عن التمتمة .

قال المشط : وصلوا حارتنا .

فقد الفورمن بعض هدوئه ، وعبر عن ذلك بسعلة مفتعلة ، ثم أخرج منديله ومسح قلقه .

وهجم على الحارة مكبر الصوت يعلن منع التجول ويكرر ذلك ، يعلن منع التجمهر ويكرر ذلك ..

وهنا وقف الفورمن . وقف فجأة . حاول ان يقول شيئا ، فارتبك ..ثم اقلع عن القول ، وخرج .

وبعد خروجه ، قال لنا الخال : هيا الى النوم .

هل نمنا في الغرفة المجاورة ؟

كان دبيب البساطير في الخارج يرج الارض بشدة ، ويجعل العتمة تكبر وتكبر ...

ولقد كبر خوفي وازداد البرد والصقيع ، فتسللت الى غرفة العم تحصيل دار حيث كان الخال ينام مستلقيا على ظهره ويعلو شخيره ، والوالد يلتف بفروته ويحرس بعينيه جثمان صديق عمره ، بينما السراج ينوس بسبب نفاذ زيته .

لم ينتبه الوالد لوجودي ، فدسست نفسي بالقرب من الخال وانا ارتعد من البرد ..

وظللت أراقبه ... اي حوار يدور بين هذين الرجلين في هذه الليلة الصقيعية ؟ من منهما الحي .. من منهما الميت ؟ وفي لحظة من اللحظات ، عندما اقتربت ذبالة السراج من الانطفاء .. وقف الوالد .. لعله أحس بالبرد الشديد الذي يصل الى العظام .. وقف ، وخلع عنه رداء الفرو ، وغطى به الجثمان الصامت ..

دثر به جسد العم تحصيل دار .. كان يعطيه دفء قلبه الابيض النظيف .

★ ★ ★

عند الفجر ، قبل ان تغيب نجمة الصباح . جاء شرطي من المخفر . جاء على الريق . جاء دون ان يغسل وجهه او يمشط شعره . جاء هذه المرة خجلا مترددا .

جلس في البداية. قرأ الفاتحة على روح الفقيد ومسح وجهه.

ثم همس لوالدي : شاويش المخفر يبلغك ان الاوامر تمنع التجمع داخل البيوت لاكثر من ثلاثة .. وسوف يحاول ان يحصل لكم على اذن بالدفن .

وقبل أن يقف ، قال بما يشبه الاعتذار :

لا دخل لي في الامر .. انا انقل لكم الاوامر .. انا عبد مأمور

وعندما خرج ، هز والدي رأسه وزفر بحرقة .

فقال الخال : ربما يكون هذا الجندي ابن فلاحين ، لذلك فان الشهامة تستيقظ في أعماقه بين حين وآخر .

ولقد انتشر الخبر سريعا بين الجيران فلم يجرؤ احد على الحضور ، الا المشط الذي جاء غاضبا يلعن دين الحكومة والنقطة الرابعة ، ويطالب بدفن العم تحصيل دار سريعا .

ـ اكرام الميت دفنه يا جماعة ..

وجاء الاذن بالدفن عند الظهيرة ، فقال الوالد : رغم تأخرهم

ظل لجثمانه الطاهر رائحة المسك . وقد خرجت الجنازة اخيرا .

الخال والمشط والوالد وشيخ الجامع والدكتور باز ، وكنا نسير وراءهم ، ويا للعجب . ظل بدر العنكبوت عابسا ولم يذرف دمعة واحدة . وظل الناس يطلون عبر النوافذ ، وتشرئب اعناقهم من وراء الحيطان .

★★★

الحيـــاة

توقفت الحياة عدة ايام ، ثم عادت من جديد ..

رفع منع التجول ، وعادت حارتنا تنغل بالناس .

صار بدر العنكبوت واحدا من اسرتنا اصبح والدي والده ، وامي امه ، وخالي خاله .. اما المشط فمشطنا جميعا .

عاد المشط الى مرحه ، والى اكاذيبه البيضاء وادعاءاته . اما الوالد فلم يعد يظهر الا عابسا .

واشتغل في بيع الدخان . وضع بسطة وسط الحارة واحترف بيع السجائر .. قلائل هم الذين يشترون علبة سجائر كاملة ، وما اكثر الذين يشترون السجائر بالمفرق ..

وظلت مشكلة الخال قائمة .

يذهب مع الفجر ويعود مع العتمة .

يعود بملابسه المطلية بالقار والزفتة ، يأكل اللقمة المرة ، ويجد رغم ذلك وقتا للسمر ولعب الورق مع المشط .

والمشط يلح عليه لكي يغير عمله ، والخال يبسط الامور ..

وذات يوم وجد بدر العنكبوت قطع حديد غريبة الشكل جاء بها الى البيت ، وعندما رآها المشط ، حذرنا منها ، وطلب ان نرميها في البئر ..

قال المشط انها قنابل من نوع (سلبند) ..

وقد رآها الخال ايضا لدى عودته فضحك وقال انها (بواجي) سيارات وليس قنابل (سلبند) .

وفي تلك الليلة خجل المشط لاول مرة واحس بالحرج .

وفي تلك الليلة صارح المشط الخال ، وقال : انه يخجل لانه وصل الى هذا العمر دون ان يتقن استعمال السلاح .

وتمنى على الخال ان يشرح له كيفية استعمال البندقية .

فقال الخال : ولكن اين ا لبندقية ؟

وفي ليلة اخرى ، اقترح المشط ان يرسم الخال بندقية على الورق ويشرح كيفية استعمالها .

فقال الخال : اين الورق ؟

وكان بدر العنكبوت اسرع مني ، قفز الى حقيبة كتبه واحضر طبقا من الورق وقلم رصاص .

احضر المشط طبلية الطعام ، وفرد فوقها الورقة . تحلقنا

حول الطبلية ، واقبل الخـال بمهابة . تألق وجـه العنكبوت بفرح هائل ولعل الخال اخذ يستعيد اهميته في نظره .. امسك الخـال بقلم الرصاص واخذ يرسم بندقية .

رسم فوهتها .. رسم الماسورة .. رسم القبضـة .. رسم كتلة الترباس .. رسم الاخمص .. رسم النابض.. رسم الزناد.. رسم الفـرح والدهشة والابتهـار .. رسم الفضـاء .. رسم المسافات الشاسعة .. رسم الرمال وقطرات المطر ..

وفي تلك الليلة ظل بدر العنكبوت مستيقظا الـى جواري .. يحدثني عن تلك البندقية ويتساءل :

ـ هل هي سريعة الطلقات ؟

ـ كم طلقة يتسع مخزنها ؟

ـ ما هو اقصي مدى تصله رصاصاتها ؟

ـ كيف يمكن ان تسندها الـى كتفك وتطلق بهـا دون ان تدفعك الى الوراء .؟

وفي النهار التالي عكف بدر العنكبوت عـلى صنع بندقية مـن الخشب .

★★★

المـراة

ويجب ان اتذكر جيدا تلك الحالة التـي انتابت الخـال فـي

احدى الليالي والمشط يلح عليه ان يرسم لنا قنبلة ويشرح كيفية استعمالها .

في البداية صمت ، ثم صاح بصوت عال : اغربوا عن وجهي ، ثم زمجر وركل كل ما وصلت اليه قدمه من اشياء ، ثم دفن وجهه بكفيه وبكى .

فصمتنا ذلك الصمت القاسي ، وعرفنا انه انفجار الاسود الحبيسة في الاقفاص عندما تتذكر المساحات الشاسعة للادغال .

ودخلت الوالدة لتستطلع الامر ورأت الخال على هذه الحال فعضت شفتها في أسى ، وهمست ان عندها ضيوفا ولا يجب ان يسمعوا بكاء الخال .

كان ضيوفها أو ضيفتها على وجه الدقة هي زوجة الفورمن شاهدتها بعيني تضع (الغندرة) على وجهها ، وتدخن نوعا من السجائر الفاخرة غير الموجودة في بسطة والدي .

وكانت هذه المرة ايضا تلبس قفازا ابيض ، وتضع على عينيها نظارة . وكان بكاء الخال مسموعا ، كان انتحابه يصل الغرفة خافتا مكتوما مثل هديل الحمام الزاجل .

وعند ذلك اضطرت الوالدة للتدخل ، ومناشدة الخال ان يكف عن البكاء . ثم لحقتها زوجة الفورمن ..

دخلت بجراة وجسارة دفعت المشط للخروج .

وضعت يدها ـ بعد ان خلعت القفاز ـ على شعر الخال وضمت صوتها الى صوت الوالدة ..

وظل بدن العنكبوت ينظر بحيادية ، وربما دون ان يفهم ما يجري ، ثم ما لبث ان وضع بندقية الخشب على كتفه وخرج الى الحارة . .

الحـــارة

الحارة تعج بالناس .

الحارة تعج بالحكايا والشائعات والقصص الصحيحة والمزورة .

الحارة جغرافيا ، معالم ، مساحة ، حدود ، تخوم ومجاري .

الحارة طول وعرض . .

فيها قسوة وحنو . . ظلم وتبرير . . احكام جائرة ودفاع عن الفائب . فيها حب للغريب وخوف منه .

فيها بنات جميلات ، واولاد شرسون ، وفيها زوايا ، وزواريب معتمة ، ولصوص يسرقون الطناجر ، وبيوت نائية مسكونة بالجن .

ومعظم سكان حارتنا هم من اللاجئين الذين ضاقت المخيمات عن استيعابهم ، او اولئك الذين يعملون في الوظائف المحترمة .

والشائعة في حارتنا سريعة الاشتعال ، بطيئة الانطفاء .

والشائعة التي سرت وانتشرت ان النقطة الرابعة بدات تعمل لتوطين اللاجئين وسحب بطاقات التموين منهم . ان النقطة الرابعة تضغط على وكالة الغوث من اجل تقليص عدد اللاجئين وشطب من يموتون من سجلات الوكالة ، وعدم تسجيل الاطفال

الذين يولدون .

والحقيقة انها لم تكن شائعة ، لان لجنة الاحصاء اخذت تزور البيوت للتحقق ، وشطب اسماء الموتى ..

لذلك ، قال الوالد ، يجب ان نتصرف لكيلا يشطبوا اسم العم تحصيل دار . قال الوالد ان على الخال ان يقول انه العم تحصيل دار وان يقابل لجنة الإحصاء على هذا الإساس ، وان يجيب عن استفساراتهم .

وقد دار هذا الحديث بوجودي ووجود الفتى بدر العنكبوت الذي راقته فكرة ان يصبح الخال والده .

وفي الحارة اخذ بدر العنكبوت يعلم الاولاد على صنع بنادق الخشب . كيف يتقنون صنع الماسورة ، والقبضة ، والزناد ، والاخمص ، والمخزن ..

وبدا واضحا انه اكتشف سر القوة ..

★★★

حدث ما عكر بدر العنكبوت ، وجعله يغضب من والده الجديد ..

همس لي انه راى الخال ليلة امس في الزاروب المعتم بصحبته زوجة الفورمن . قال لي ان الخال اختلى بها طويلا ، وانها كانت تقبله من فمه قبلة الحمام نفسها التي قبلتني بها ذات يوم .

كان بدر العنكبوت مقهورا ولذلك فانه حكى للمشط ايضا . المشط استشاط غضبا ، وحلف الف يمين انه سيواجه الخال ويضع حدا لنزقه ونزواته .

لكن في الليل عندما جاء الخال لم يقل المشط كلمة واحدة .. المشط الجبان .. المدعي .

حتى عندما حلق الخال ذقنه وبدل ثيابـــه الوسخة ومشط شعره وتهيأ للخروج لم يتكلم المشط ولم يقل شيئا .

وقال لنا الخال انه سيذهب ليقص شعره عند الحلاق ، وكنا نعرف انه ذاهب لمقابلة زوجة الفورمن ..

ولم يستطع المشط بعد ذلك ان يرفع راسه امامنا ، ولكنه في لحظة من لحظات الالم قال :

ـ على كل حال يجب ان يفعـل شيئـا مـــع زوجة الفورمن لا ليمتعها وانما من اجل ان يكسر عينها وعين زوجها .

وبالرغم من اننا لم نفهم كلامه جيدا في ذلك الحين ، فانـه قال ذلك كنوع من التبرير ليس الا .

قوة الحياة

التدقيق . الاحصاء الشائعات . الخوف . وكالة الغـوث . الاموات يموتون مرة بعد مرة .

ولجنة التدقيق والاحصاء تدخل البيوت مثل الريح الصفراء.

لجنة التدقيق تشطب من سجلات الاغاثة الموتى والمسافرين.

والوالد يستمع الى الشائعات . يصغي اليها جيدا ، فيرتبك

ويرتبك ، ويسرع الى البيت ويخبر الوالدة ويربكها معه . فتضرب كفا بكف وتقول : كنا ننتظر لجنة الاحصاء لتعطينا فاذا بها تأتي لتأخذ منا .

وعند ذلك يطلب الوالد من ربه الرحمة لروح تحصيل دار الطاهرة .

والعم تحصيل دار في قبره .. يزوره اهل البيت صباح كل يوم خميس ، يسقون تراب القبر بالماء . قبره الذي نما فوقه العشب ونبات العوصلان .

وكان لا بد ان يأتي اليوم الذي تزور به لجنة الاحصاء منزل العم تحصيل دار .

لم يذهب الخال ولا المشط الى العمل .

كنت وبدر العنكبوت نقف على راس الشارع ، نرقب اطلالة سيارة (الاونروا) البيضاء لحظة بلحظة .

امتثل الخال لتعليمات الوالد .

لبس (قنباز) العم تحصيل دار وحطته وعقاله .

وجلس ينتظر ويستمع الى سرد عن طباع وعادات العم تحصيل دار .

ـ يجب ان تنتحل شخصيته جيدا والا فسيقطعون بطاقة التموين .

هز الخال راسه . فتابع الوالد كلامه :

ـ عليك ان تحني ظهرك قليلا لتبدو مثله .

اجابه الخال بحدة : تحصيل دار لا يحني ظهره من اجل حفنة طحين .

كان والدي حليما وواسع الصدر ، لذلك لم يتضايق من كلام الخال . بل انه اكد ذلك وأضاف :

ـ بالفعل ان تحصيل دار لا ينحني من أجل حفنة طحين .

وهنا قالت الوالدة : ولكن المرحوم تحصيل دار ليس سمينا مثلك يا أخي .

عند ذلك خلع الحطة والعقال عن راسه ، وهم بخلع بقية الثياب لولا تدخل الوالد الذي نهر الوالدة واستحلفها بالله ان تخرج وتترك الرجال يتدبرون الامر .

خرجت ، فأعاد الخال الحطة والعقال ونظر الى نفسه في المرآة ، ثم تلثم بالحطة . ويبدو ان ذلك لفت نظر بدر العنكبوت ، فقال :

ـ انت تبدو الان كالفدائيين بالفعل ايها الخال .

أماط اللثام ، واجابه بهدوء :

ـ عليك ان تتذكر انني والدك الان ، وليس خالك .

اشعل المشط سيجارة، وكان هذا اليوم يلبس نظارته الطبية التي لم يضعها منذ فترة طويلة .

اشعل المشط سيجارة ثانية للخال .

امتلأت الغرفة بدخان السجائر .

وطرق الباب فجأة .

طرق ، فارتبك كل شيء في البيت .

وحدث استنفار كامل .. استنفرت عيونّنا وجذور قلوبنا .

وخرج المشط ليفتح البوابة الكبيرة ونحن ننظر من شقوق الباب الصغير بتوتر ..

ويا للمفاجأة .. دخل الدكتور باز . جاء على غير عادة .

ما الذي جاء به ؟

دار بينه وبين المشط حوار صعب ، كان المشط ينفي ان يكون الوالد او الخال في الداخل . والدكتور باز يصر على الدخول.

همست الوالدة للوالد كي يخرج ويتدخل ، ويصرف الدكتور باز بشكل كريم ، وقد انصاع الوالد وخرج خوفا من قدوم لجنة الاحصاء أثناء ذلك الجدل فيفشل كل شيء .

وهكذا خرج له الوالد . وحكى معه ، كان من الواضح ان الدكتور باز سكران ، والحقيقة انه لم يستطع اقناعه بالانصراف ، فأدخله الى غرفتنا .

فرشت له الوالدة فرشة الاسفنج المغطاة بغطاء نظيف يليق بوضعه كطبيب ، فراح في نوم عميق ..

قال الوالد : عما قريب يذهب السكر ويصحو .

قال المشط الذي حدق بوجه الدكتور باز طويلا :

ـ يا جماعة الدكتور باز ليس سكرانا .. انه ممسوس .. لعله قد أكل من تفاح المجانين .

وظللنا ننتظر .. انتظرنا طويلا ..

ما جاءت لجنة الاحصاء ، ولا افاق من غيبوبته الدكتور باز .

هجم الخوف والوسواس والقلق المدمر على روح الوالد ، وكان ينقسم الى اثنين .. واحد يطل من البوابة الى رأس الشارع ينتظر سيارة (الاونروا) وآخر يركض الى الغرفة الاخرى يزيح الغطاء عن راس الدكتور باز ثم يضع اذنه عند قلبه ليتأكد انه يتنفس .

ـ ما العمل ؟

قال الوالد . قلنا كلنا :

ـ هل نحضر له طبيب ؟

ـ هل نطلب من الحاجة ام امين ان تفصد دمه بالشفرة او موسى الحلاقة ؟

ولكن ، ليس في حارتنا من طبيب سواه .

كما ان فصد دمه غير وارد لان ذلك سيثير الفضيحة ، ولان مسألة تناوله لتفاح المجانين غير مؤكدة .

ـ انه ممسوس .. انظروا الى وجهه الاحمر .. الى البقع الداكنة فوق جلده .. انه آكل تفاح المجانين .

دار الجدل من جديد ، فصاح الخال من اعماقه :

ـ اصمتوا .. اريحونا يا جماعة .

مرت فترة صمت . قصيرة ام طويلة .. لا ادري .

ثم همس المشط او قال بصوت منخفض :

ـ ولكن لماذا فعل الدكتور باز ذلك ..

ثم جاوب نفسه بالصوت المنخفض نفسه :

ـ لعله احس بالاحباط او الانكسار او الشيخوخة ..

ـ لعله اراد ان يتزود بشيء من القوة العبثية او الشجاعة المهزومة ..

وفجأة ، طرق الباب للمرة الثانية .

فارتبكنا ، والبعض منا ارتجف ، او ذعر .

خرج المشط ، وفتح البوابة الكبيرة ، وانجاب الصرير عن ثلاثة رجال وامراة ، وعبر البوابة تقف سيارتهم البيضاء . الرجال يحملون حقائب صغيرة ، والمراة تحمل دفترا صغيرا .

ابتعد المشط .. تراجع الى الوراء . وخرج الوالد مهزوزا يرحب بهم .

ـ انها لجنة الاحصاء .

لماذا شحب وجه الخال . لماذا خاف هذا الرجل الذي كسر حاجز الموت هناك ، وواجه العدو بجسارة . لماذا شحب ؟

الانه امام امتحان ؟

دخلوا ، فرشت لهم الوالدة فرشة فوق اخرى . جلسوا دون ان يخلعوا احذيتهم .. لقد اعتادوا كما يبدو على اهانة اهالي بلدنا العزل .

قال أحدهم ، وهو ابن عرب ، وكان واضحا انه المترجم .

ـ اسمعوا يجب ان تعطوا لنا المعلومات الصحيحة .. واي خطأ في المعلومات سوف يجعلكم يندمون .

أنكمش بدر العنكبوت واخذ يبحث عن ركن يلوذ به .

وابتسم الرجل الخواجا ، وابتسم رفيقه الثاني ، بينما مدت المراة رجليها .

قال المترجم : اين محمد تحصيل دار .

تقدم الخال خطوة وقال : أنا ..

ولاحظت ان المشط يحدق بساقي المراة التي كانت تسجل شيئا في دفترها الصغير ، كانت تلبس جوربا بلون بشرتها ، تشابه الجورب والجلد ، فكأنها تلبس الجورب تحت الجلد ..

ـ اذن انت محمد تحصيل دار ..

هز الخال راسه ، فأكد الوالد بصوت عال :

ـ انه محمد تحصيل دار وانا أشهد على ذلك .

قال المترجم : من فضلكم جميعا .. اخرجوا وليبق فقط صاحب البيت .

كان الخال قد استعاد ثقته، وأصبح المجهول امامه معلوما.. وخيل الي انه خاف في البداية لانه اضطر لانتحال شخصية غيره .. ولعلها تجربته الاولى في الكذب الابيض .

قال الخال الذي تقدم خطوة أخرى :

ـ يا خواجه .. انهم جيراني وليس من اللائـق ان تطردهـم مـن بيتي .

أشار له الوالد من وراء ظهورهـم وعض علـى شفتـه ، ان اصمت ، واترك كل شيء يسير على ما يرام .

وهنا دبت الحيوية في عروق بدر المنكبـوت ، فخـرج مـن عزلته واقلع عن الفرار ، تقدم خطوة فخطوة مثل الخال ..

حكى المترجم مع الآخرين بلغتهم .. تشـاوروا مـع بعضهـم البعض . ثم عاد المترجم يقول :

ـ حسنا ولكن حذار من ان يتدخلوا في عملنا .

فقال الوالد بالنيابة عن الموجودين :

ـ امرك يا خواجه .. امرك .

اعاد المترجم سؤاله :

ـ اذن انت محمد تحصيل دار .. هل لديك هوية شخصية ؟

نفى الخال : لا ..

فقال المترجم : يجب ان نتأكد من شخصيتـك لان الكثيريـن ينتحلون شخصيات غيرهم هذه الايام .. وقد اكتشفت لجنتنا كل الاكاذيب .

فقال الوالد ـ وكان قد تعهد بالصمت قبـل قليـل ـ قـال بمذلـة :

ـ نحن شرفاء يا خواجه ولا نكذب .

عند ذلك . عند ذلك فقط شحب الخال فجأة ، ثم احمر لونه . ارتجف وجهه ، واصبحت عيناه بلون الدم . ويبدو ان الوالد لاحظ ذلك ، وتنبه الى انه بالغ في التذلل ، وبالغ في هذه الكذبة الطويلة ، فانكسرت نظراته .. سالت نظراته على الارض الترابية ، وتجمدت عند حذائه .

وفي هذه اللحظة . في هذه اللحظة بالضبط دخلت زوجة الفورمن .. دخلت بكامل زينتها . وجدت البوابة الكبيرة مفتوحة فدخلت . دخلت تلبس قفازها الابيض فخامت نظارتها ، وقالت على الفور :

ـ ماذا فعلت بنفسك .. لماذا تلبس هذه الملابس يا عمران .

شحب وجه الخال وبدا جليا ان قدميه ترتجفان ، وانه قد يسقط على الارض فجأة .

شدت والدتي المراة من يدها ، وسحبتها الى الخلف بعد فوات الاوان .

ابتسم المترجم ، وحكى شيئا للخواجات ، ادركنا انه يحس بالزهو والانتصار ، لقد اكتشف حالة جديدة ، وربما يعطونه علاوة على ذلك !!

ابتسم المترجم وقال : واين الولد بدر .

اشار اليه والدي بانكسار شديد . فسأله المترجم :

ـ هل هذا الرجل هو والدك ايها الفتى .

صمت بدر العنكبوت . لم يدر ماذا يقول .

فقال الخال بصوت خافت :

ـ لا داعي للسؤال ايها السيد .. انا لست أباه ..

وقف المترجم ، واخذ يحدق بوجوهنا.. ثم قال بصوت عال:

ـ لماذا تكذبون .. لماذا تحرجوننا امام الاجانب .. لماذا تقولون انكم شرفاء ..

والآن ، احمر وجه الخال ، صار الخال مثل بركان خمد طويلا ثم اخذ يتهيأ للانفجار .

انتفخت عروقه .. برزت اوداجه .

وفجأة انقض على المترجم . امسكه من كتفيه ودحرجه ارضا ، ثم داسه بقدمه .

واسرع الوالد والمشط فأبعدوه عنه .

اما الخواجات فقد اشتعل الذعر في عيونهم .

خرج الخال مندفعا الى الخارج . خرج من البوابة الكبيرة باحثا عن الفضاء والهواء والمدى ..

خرج دون ان ينظر الى اي منا تاركا وراءه اهل البيت مزقا وشظايا ..

خرج المترجم يجرجر اقدامه، والتحق بركاب سيارةالاونروا.

وكانت زوجة الفورمن تبكي ندما امام الوالدة ، والوالدة رغم كل شيء تطيب خاطرها .

والدكتور باز ازاح الغطاء عن وجهه ، واخذ يستيقظ ويحاول

ان يفهم ما يجري . بينما جلس الوالد على الحصيرة ودفن وجهه بكفيه .

اما المشط ، فقد ركض وراء الخال ، وركض وراءهما بدر العنكبوت ، ووجدت نفسي اركض وراءهم ايضا .

كانوا يركضون باتجاه البراري .

★★★

لم نستطع اللحاق بالخال . كان قد ابتعد وابتعد .

وظللنا نرقبه وهو يصعد الجبل المقابل . كان يبدو بحجم رأس الدبوس ، وظل يبتعد ويبتعد حتى اختفى تماما .

قال المشط : انه يعود الى هناك مثلما تعود الطيور الى اعشاشها .

قال ذلك ، وخلع نظارته فمسح دمعة ، ثم اعاد النظارة .

لم يكن بدر العنكبوت حزينا . كان صامتا ، انه يصبح باطنيا وغير مقروء عندما يعزم على القيام بعمل جريء .

رجعنا صامتين .. وكانت البراري تمتد حولنا مترامية الاطراف .

كانت البراري صامتة مثلنا ..

ومررنا قرب تلك الشجيرات الوحشية التي تتدلى منها ثمار تفاح المجانين .

توقفنا امامها لحظات .

فحكى المشط كلاما مع نفسه ..

كانت اوراق الشجيرات قد اخذت تتساقط ، وكانت الثمار قد بدات تذوي وتجف .

وظل المشط يحدث نفسه بصوت خافت ، ثم صار يحدث نفسه بصوت مسموع ، ولعله قال بما معناه ان شجرة القوة والعظمة تزهر الآن هناك .

ولعله قال بما معناه انه سيذهب الى هناك ذات يوم .

وفيما بعد ، عندما يتعب المشط من بيع السمك ويتشاجر مع زوجته ، كان يقسم بأنه سيذهب الى هناك ذات يوم ويلتحق بالخال .

لم نكن نصدقه .. كنا ننظر الى بعضنا البعض من وراء ظهره ونضحك .

ظل المشط كما هو .. يبالغ ويدعي .. ويطيش على شبر ماء .. الا انه توقف عن سرد القصص الخرافية ، وصار يحكي لنا قصصا من عنده عن بطولات الخال وجسارته ، فظل الخال الذي انقطعت اخباره كلياً عنا ، ظل يكبر في اعماقنا ويتعملق .

اما الوالد الذي دب فيه هرم مفاجيء ، وشيخوخة عاتية ، فقد ترك ذلك الحادث اثلاما في روحه ، ولكنه على كل حال ظل بكل عصامية وكبرياء يتغلب على اليأس بقوة الحياة .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

دار الحقائق للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت ـ لبنان ـ ص.ب: ١٤/٥٥٢٨

الثمن ٨ ل.ل.

مصرياتي
مجلة
الابتسامة
www.ibtesama.com